على طريق الهجرة

دراسة علمية

تأليف

الكاتب الكبير/ حسن فتح الباب

الجزء الثاني - عدد صفر ١٤٤١ هـ

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

رئيس التحرير
أ.د محمود حمدي زقزوق

مجلس التحرير
أ.د إبراهيم الهدهد أ.د عبد الفتاح العواري أ.د عبد المنعم فؤاد

مدير التحرير
أ. محمود الفشني

الفصل الرابع

التخطيط والتنظيم في دار الهجرة

خطة من واقع الظروف الجديدة:

كانت كل خطوة تقرب المهاجر العظيم وصاحبه من المدينة علامة على طريق النصر تدنو بهما من الهدف، وتقصي عنهما الخطر، وبينا هما يقطعان آخر أشواط رحلتهما الشاقة، كان رسول الحق لا يعنى بغير التفكير في وضع خطة جديدة -بوحي من الله- للمرحلة القادمة، لا يشغله عن ذلك عناء المسير أو وعثاء البيداء، ولا تصرفه أعباء الحاضر عن النظر في احتمالات المستقبل.

وها هي ذي المدينة على مدى البصر، لم يبق غير فرسخين على بلوغها؛ فليخلد النبي العظيم وصاحبه إلى بعض الراحة، بعد أن تزايل الخطر حتى يستطيعا أن يستأنفا بعدها المسير في قوة ونشاط، ولتكن تلك البقعة الصحراوية التي نزلا بها، والتي يطلق عليها «قباء» محطًّا لالتقاط الأنفاس والتفكير فيما يتخذ من تدابير للغد المرتقب.

قد كان الهدف من الهجرة هو الوصول إلى المدينة، وكان المقصد تأمين الإسلام والمسلمين واستكمال الرسالة في أرض صالحة، ومن ثم فإن الخطة المنشودة في الهجرة تستهدف تحقيق هذا الغرض، وهو نشر الدعوة كما هو الشأن في الخطة التي اتبعها الرسول في مكة، غير أن الأسلوب والوسيلة اللازمين للتخطيط في المدينة يختلفان بالضرورة

عما اتخذ في مكة، فضلا عن أن إنشاء دولة في المدينة دينها الإسلام كان هدفًا رئيسًا آخر للنبي لا ينفصل عن الهدف الأول.

وكان الإسلام في مكة غريبًا، وكان المسلمون مضطهدين؛ لأن الدعوة جاءت بما يخالف مألوف قريش في عقائدها ومناسكها وعاداتها، ولأنها كانت تؤذن بزوال الزعامات القرشية التي كانت لأبي لهب وأبي سفيان وأمثالهما وهم حريصون جد الحرص على تلك الزعامات التي توارثوها، ولأن قبائل العرب كانت تتهيب مناصرة الدعوة وتأييدها لمكانة قريش منها، ولأن هذه الدعوة الجديدة كانت تهدد بسقوط مصالح قريش المادية ونظامها الطبقي القائم على استغلال الإنسان للإنسان.

ونظرًا لوفرة عدد الأعداء وقوة سلطانهم وشدة حقدهم، فقد كانوا يمسكون بزمام المبادرة في أيديهم، فهم الذين يهاجمون النبي وأصحابه، وميزان القوى في صالح الكثرة المستبدة المسيطرة؛ لذلك استطال أمر ظهور الإسلام، واستمر رسول الله في موقفه ثلاث عشرة سنة متوالية يجاهد لإعلاء كلمة الحق، وهو محاصر بظلمات من الباطل بعضها فوق بعض طبقات.

أما في يثرب فإن الوضع يختلف، فقد كان المسلمون يزدادون بها كل يوم عددًا وسلطانًا، ولا يجدون من أذى

المشركين ولا من أذى اليهود ما يجده إخوانهم بمكة من أذى قريش، وصارت المدينة دارًا عزيزة منيعة للإسلام، تجمع بين القــوة الروحية التــي تذكيها عقيدة التوحيــد، والقوة المادية القائمــة على خيــرات يثرب مــن زرع ونخيل وأعنــاب، ولقد تكاملت هاتان القوتان في الحلف الذي عقده رســول الله مع أهل المدينة، فمن أسلموا أطلق عليهم: الأنصار.

وهكــذا تغيرت الحــال، ورجحت كفة الإســلام في الميزان أو أصبحــت -على الأقــل- معادلة لكفة قريــش، فأصبح من الطبعــي أن تجد الدعــوة في يثرب متنفسًــا ومنطلقًا بعد أن انجابــت[1] أمامها صعوبــات كانت تقف فــي طريقها بمكة، وأصبح ميسورًا لمن يريد الدعوة الجديدة أن يتصل بصاحبها في حرية وأمن.

حتمية أسلوب المجابهة:

فلا غرو أن يكون الأســلوب المناسب للخطة الجديدة نابعًا من تلك الظروف، متسقًا معها، فإذا كان موقف النبي وأتباعه بمكة يتســم بالصبر علــى الأذى، والصمود والمقاومة بالنظر إلــى قوة قريش، فســوف يصبــح بعد الهجــرة موقف القوى القادرة على رد القوة بالقوة والعدوان بالعدوان.

ولئن كانت الظروف من قبل قد فرضت عليه التزام موقف

(١) انكشفت وزالت. (المجلة).

الإحسان إلى المسيء عله يرعوي عن غيه، واحتمال الأذى من المعتدي لعل الله أن يهديه، فسوف يستطيع في يثرب أن يتخذ موقف المبادرة فيحاصر هو قريشًا ويجاهد بقوته حتى لا تسول لها نفسها أنها قادرة على الاستمرار في الإيذاء والصد عن الدعوة، فبالأمس كان كفاحه اصطبارًا أما غدًا فسوف يكون حربًا على الظالمين حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا، والله تعالى يقول:

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

(البقرة: ١٩٤)

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾

(البقرة: ١٩٠)

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠)

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ (التوبة: ٣٦)

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾
(الحج: ٤٠)

فقتال العدو حق؛ بل هو واجب لنشر الدعوة وتأمين المؤمنين، كما أن مجابهة العدو من شأنها أن تفل شوكته، وتزيد المسلمين قوة فيتاح لهم وقت للتفكير والتدبر في شئون دينهم والتأمل في خلق السماوات والأرض، فيتعمق فهمهم للشريعة ويصيرون أقدر على الدعوة لها وتبصير الناس بها، لا يشغلهم عن ذلك أذى يتعرضون له كما كانت الحال بمكة أو تهديد بظلم يخشونه، فالحرية والأمن من سياج العقيدة والإيمان.

كذلك، فإن التصدي لقريش وحصرها في مكمنها ريثما يحين الوقت المناسب لإرغامها على التخلي عن عدوانها بعد أن تأكد عزمها على التمادي في الباطل، من شأنه أن يتيح الفرصة لتعمير الأرض وتنمية مواردها الاقتصادية، فتتوافر للمسلمين الكفاية ويرتفع مستوى الفرد والأمة، فالإسلام دين ودولة، ولا مناص من خلق الجو الصالح لإقامة دولة إسلامية تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تطبيقًا للشريعة الغراء.

ومن ثم كان قتال المشركين إذا استمروا في عدوانهم أمرًا حتميًّا، فبغير ذلك لا يمكن نشر الدعوة ولا إقامة الدولة، وهما المقصد الأصيل للهجرة.

وسيلة تحقيق الهدف.. الإيمان والوحدة:

ووسيلة الوصول إلى هذا الهدف هي توفير القوة للإسلام والمسلمين حتى يستطيعوا مواجهة قريش وقهرها، أما الطريقة الكفيلة بتوفير القوة فهي اتخاذ أنجع التدابير المؤدية إلى ذلك، غير أن قريشًا أكثر عددا وعدة من المسلمين في المدينة، إذ يبلغ رجالها أضعاف عدد المهاجرين والأنصار معًا، فضلا عن القبائل المتحالفة معها وما تملكه من عتاد، فكيف السبيل إلى التفوق على العدو؟ وما هي التدابير التي يمكن القيام بها كي ترجح كفة المسلمين؟

إن التدبير المناسب هو تعميق إيمان المهاجرين والأنصار؛ لأن قوة الإيمان -كما سنبين تفصيلا في الفصل التالي- هي السلاح المعنوي الذي لا يفلُّه سلاح آخر مادي أو معنوي، كذلك فإن المسجد في الإسلام سبيل إلى تثبيت الإيمان ودعمه في الناس؛ إذ تقام فيه الصلاة عماد الدين، ويلتقي فيه المسلمون صفًّا واحدًا، ويجتمع المسلمون فيه على التوحيد، ويؤمنون بأنه لا إله إلا الله، والله أكبر، فلا خضوع لغير الله وإنا إلى الله راجعون، وأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، والموت حق فلا خوف إذن من الموت.

والمسجد كما تقدم في الفصل الأول مدرسة للعلم، يتخرج فيها دعاة الإســلام وينتشرون في الأرض، فيدعون إليه من لم يسلم، ويبصِّرون من أسلم بأحكامه، ولما كان المسجد كذلك ســبيلًا إلى تدعيم الإيمان ونشــر تعاليم الديــن، فقد كان أول عمــل قام به النبي ﷺ بعد أن غــادر مكة أن أقام بيتًا لله في قبــاء، التي اتخذ منها محطّا للراحة من عناء الرحلة غير بعيد من يثرب، ولم يشــأ ﷺ أن ينتظر حتى يبلغ المدينة ثم يبني بها مســجدًا؛ بل عجل به وخير البر عاجله، وفي ذلك مصلحة الإســلام، فالمعركة الفاصلة بينه وبين الشرك معركة حتمية، ولن يتأخر ميقاتها طويلا، فهي واقعة وشيكا لا محالة، وهي معركة حياة أو موت، فالســرعة في تجهيز الوســائل اللازمة لتحقيق الهدف هي وسيلة أساسية من وسائل النصر.

وهكذا أســس النبي مســجده في قباء خلال الأيام الأربعة التي أمضاها بها مع أبــي بكر، وناصره الرحمن فيها بفيض من القــوة، فأخذ يعمل بيديه مع صاحبــه حتى أتمّا بناء أول مسجد يقام في الإسلام، وقد التأم شمل النبي وأبي بكر وعلي فــي قباء، إذ بلغهــا عليٌّ ﷺ أثناء مقام رســول الله والصديق بها، وكان عليٌّ قد غادر مكة بعد أن رد الودائع التي كانت عند الرســول لأصحابها، وظل يقطع الطريق إلــى المدينة وحيدًا على قدميه، يســير بالليل ويســتخفي بالنهار طوال أسبوعين

كاملين؛ ليلتقي برسـول اللـه وبأصحابه من المسـلمين في يثرب.

أما السلاح الثاني الذي يكفل للمسلمين النصر على قريش بعد سـلاح الإيمان: فهو الوحدة، أو دعم الجبهة الوطنية وفقا للمصطلـح الحديث، ومـن الواضح أن الوحـدة تنبع من قوة الإيمان، فهما في الحقيقة سـلاح واحـد، ويمكن القول: إنهما جناحا القـوة لا تنهض بغيرهما مجتمعين، ولسـوف نفصِّل القـول في الوحدة عند الحديث عنها في موضعها من الفصل التالي.

تنظيم المسلمين:

أما التدبير الذي يكفل تحقيق الوحدة بعد إنشاء المساجد، فهو تنظيم المسلمين في المدينة كوسيلة لخلق جبهة موحدة متنافسـة، وتعبئتهـا للمعركة الفاصلة، وما كان أشـد حاجة المسـلمين في يثرب إلى الوحدة لبناء مجتمع صلب متماسك، ولإقامـة دولة مهيبة الجانب، تديـن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقدر على نشر عقيدتها.

وإذا كان الجيـش القوي ركنًا أساسـيًّا للدولة؛ فإن وضع تنظيم للمسـلمين في يثرب كفيل بإنشاء جيش قد يكون أقل حجمًا من جيش قريش وأشـياعها، ولكنه أكثر فاعلية، جيش صغير ولكنه يسـتطيع أن يواجه الأعداء؛ لأن جنوده يتمتعون

بما لا يتمتع به جنودها، فهو جيش عقدي يتبع قيادة واحدة، وهو واعٍ بأهدافه وأساليبه، مما يرتفع بمستواه الفكري إلى درجة كفاءته وقدرته القتالية.

وهذا الجيش يضم كل المسلمين، بلا تمييز بينهم، فكل مسلم مكلف بأداء فريضة الجهاد طالما هو قادر عليه، وكل مسلم قوي الإيمان قادر على أن يتحول ساعة الخطر إلى جندي يستطيع أن يواجه مئة من جنود العدو، وموطن القوة في هذا الجيش مزيج من قوة المقاومة والعقيدة الراسخة، والتعبئة الكاملة الشاملة.

فكيف السبيل إلى هذه التعبئة؟

عقبات قد تحول دون تحقيق التعبئة:

أولاها: العداوة القديمة بين الأوس والخزرج في المدينة، تلك التي تحولت بعد إسلامهم إلى منافسة يخشى أن تشتد فتثير الإحن والثارات الكامنة في النفوس، فتدب الفرقة في صفوفهم، الأمر الذي يضعف الجبهة الإسلامية ويفتتها فلا تقوى على مجابهة العدو الغاشم.

وفضلًا عن ذلك فقد كان شعب المدينة يضم بين جنبيه اليهود إلى جانب الأوس والخزرج، وكان ثم تنازع بين الجانبين، وكثيرًا أدى هذا التنازع واختلاف المصالح إلى البغضاء، ثم إلى القتال وفي ذلك يقول المرحوم الدكتور:

«محمد حسين هيكل» في كتابه «حياة محمد»:

«إن التاريخ ليروي أن المسيحيين في الشام كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية، وكانوا يمقتون اليهود أشد المقت، لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكلوا به، قد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها، فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج لاستدراجهم ثم قتلوا عددا منهم غير قليل، مما أنزل اليهود عن مكان السيادة الذي كان لهم، ورفع عرب الأوس والخزرج إلى مكانة غير مكانة العمال التي كانوا مقصورين من قبل عليها، وقد حاول العرب من بعد ذلك أن يوقعوا باليهود مرة أخرى؛ ليزدادوا في المدينة العامرة بالزراعة والماء سلطانًا فنجحوا في كيدهم بعض النجاح، ثم فطن اليهود لوقيعتهم بهم.

بذلك تمكنت العداوة والبغضاء في نفوس يهود يثرب للأوس والخزرج، وفي نفوس الأوس والخزرج لليهود، ورأى أتباع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تهوي بهم إلى الفناء، أو قد يجد الأوس والخزرج حلفًا من بني دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء؛ لذلك سلكوا في سياستهم خطة غير خطة الغلب في المعارك، فلجئوا إلى سياسة الوقيعة والتفريق، إذ دسوا بين الأوس والخزرج وملئوا نفوس هؤلاء وأولئك حفيظة

بعضهم على بعض، مما جعل هؤلاء وأولئك على أهبة مستمرة للقتـل والقتـال، وجعل اليهـود بمأمن منهم ومـن عدوانهم، يزيدون في تجارتهم وفي ثروتهم، ويسـتعيدون ما فقدوا من سيادة، ويستردون ما أضاعوا من دار ومن عقار».[٢]

أما العداء الذي بثته اليهود بين الأوس والخزرج فقد كانت لـه نتائـج وخيمة في تاريـخ المدينة قبل الإسـلام، وكان كل منهم يلتمـس الحلف من قبائل العرب ليقاتل الآخر فيشـفي صدره من الحقد ويظفر وحده بالسيادة والسلطان. وكان من ذلك أن قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشـهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش علـى قومهم من الخزرج، وسـمع بهم النبي ﷺ فجلس إليهم ودعاهم إلى الإسـلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلامًا حدثًا: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم فيه.

وعـاد القوم إلى يثـرب لم يُسـلم منهم غير إيـاس، لأنهم كانوا في شغل بالتماس الحلف استعدادًا لوقعة «بعاث» التي اصطلى الأوس والخزرج جميعًا بنارها بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه من مكة.

لكن كلام النبي ﷺ ترك في نفوسهم بعد هذه الواقعة من الأثـر ما دعا الأوس والخزرج جميعًا ليلتمسـوا في محمد نبيًّا

(٢) «حياة محمد ﷺ» لمحمد حسين هيكل:١٣٤.

ورسولًا وحليفًا وإمامًا.

وكانت وقعة «بعاث» بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه إلى يثرب، اقتتل فيها الأوس والخزرج قتالا شديدًا أَمْلَتْه عداوة متأصلة، حتى لكأن كل قوم يسائل بعضهم بعضًا إذا هم انتصروا أيبقون على أصحابهم أم يستأصلونهم ويجهزون عليهم؟ وكان أبو أسيد «حضير الكتائب» على رأس الأوس، وكان في نفسه من الحقد على الخزرج أشده.

فلما بدأ القتال دارت على الأوس الدائرة فولوا فرارًا نحو نجد، فعيرتهم الخزرج، فلما سمع حضير تعييرهم طعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح: وا عقراه والله لا أريم حتى أقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا، فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم مما أصابهم ما جعلهم يستبسلون مستيئسين، حتى انهزمت الخزرج شر هزيمة، وجعلت الأوس تحرق عليها نخلها ودورها، حتى أجارها سعد بن معاذ الأشهلي، وأراد حضير أن يأتي الخزرج قصرًا قصرًا ودارًا دارًا يقتل ويهدم حتى لا يبقي على أحد، لولا أن منعه أبو قيس بن الأسلت إبقاء على بني دينهم، فجوارهم خير من جوار الثعالب، يعني: اليهود.

تلك كانت أحوال الأوس والخزرج قبيل الإسلام.

وظلت المنازعات القبلية بين الأوس والخزرج تحرق

شــملها، وتثلج صدور اليهود لما تتيحه لهم من تفرغ لشئون المــال والتجــارة، على حين يكــون أعداؤهم في شــغل عنهم بصراعاتهــم الدموية الداخلية، حتى كانــت بيعة العقبة التي ألفــت بين قلوب المســلمين من أهل يثرب علــى دين التقوى والإيمــان، غير أن حداثة عهــد هؤلاء بالإســلام، والحاجة إلى وضع تحالفهم مع رســول الله موضــع التجربة العملية حين يحيــن أوان الحرب وهــي آتية لا ريب فيهــا، يتطلبان تعميقًا لإيمانهــم، عن طريق تفقيههم في الشــريعة وتقديم الأســوة الحســنة لهــم؛ تأكيدًا لأخوتهم عن طريق البحث عن أســلوب أمثــل بتوثيقهــا؛ حتى يصبحوا جميعًا علــى قلب رجل واحد، وتصبــح يثرب بهم قلعة متماســكة لا يأتيها الضعف من بين يديها ولا من خلفها.

ولكــن جوهــر الدين، وحتميــة المعركة، وضرورة إنشــاء الدولة الجديدة، كل أولئك يقتضي بناء جبهة عريضة، لا تقف عند الأوس والخــزرج، بل تمتد لتشــمل إخوانهم المهاجرين، كمــا تضم يهود المدينــة، ذلك أن المواطنة تجمع المســلمين والمؤلفــة قلوبهم من أهل الذمــة معًا، فلا إكراه في الدين؛ بل لهم مــا لنا وعليهم ما علينــا، طالما لم يجاهــروا بالعداوة أو يفتنوا الناس عن دينهم، والله تعالى يقول:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن

﴿تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨)

وقريش قوية بثرواتها البشرية والمادية، عنيفة في خصومتها، مصرة على عدوانها، ولن يردعها إلا القوة: شعب موحد، وجيش قوي من أبنائه، والوسيلة لذلك هي تعميق الإيمان، وتدعيم رابطة المواطنة.

الاحتياجات الأساسية:

ومن ثم فإن حاجة الدين والدولة معًا إلى جبهة قوية تستلزم أمورًا ثلاثة:

١- توحيد الأوس والخزرج عن طريق صَهْرهم في بوتقة واحدة؛ لاستئصال كافة عوامل النفور ورواسب الثارات القديمة.

٢- توحيد المهاجرين والأنصار عن طريق إدماجهم وإذابة الفوارق بينهم.

٣- تأليف اليهود عن طريق عقد معاهدة تحالف معهم، اتقاء لاحتمالات انضمامهم إلى قريش.

تلك هي القواعد التي لا مفر من إقامتها كي يرتفع فوقها بناء الدولة الجديدة، وهي تتصل جميعًا بوحدة الصف ووحدة الهدف كوسيلة أساسية أولى للقوة.

أما الوسيلة الثانية للقوة: وهي تعميق الإيمان في النفوس، فإنها تتحقق بالوحدة، كما تتحقق ببناء بيوت الله

فــي المدينة؛ ليذكــر فيها اســمه تعالى في الغــدو والآصال، ولتصبــح منارة عالية لدولة الإســلام الأولى، ورمزًا لحضارته الناشــئة، بما يمثله المســجد مــن مجلس نيابــي يناقش فيه المســلمون شــئون دينهم ودنياهم، ويتشــاورون على بساط الديمقراطية الحقة.

وهكذا تحددت الخطة وتكاملت عناصرها، ووضعت طريقة العمل، خطة وطريقة تكفلان النصر للمسلمين وقهر عدوهم، وبذلك تنفتح الآفاق لرســالة التوحيد ويغمر نورها العالمين، ويعود إلــى مكة في المدى البعيد أولئــك الأبطال المناضلون الذين أُكْرهــوا على ترك ديارهم وأهليهــم وأموالهم، يعودون إلى بيت الله الحرام مهوى نفوسهم فينشقون في حماه عبير الوطن الغالي، ويشــفون صدورهم مما برح بها من التحنان، هنالك ترفرف أعلام الحق، وتسقط أصنام الباطل، وما النصر إلا من عند الله.

واطمــأن قلــب رســول الله بمــا أوحي إليه مــن تخطيط وتنظيــم فــي دار الهجرة التــي أصبح غير بعيــد منها، ولم يكد ينتهي مع أبي بكر من بناء مســجد قباء، حيث حطَّا في الطريق حتى اســتأنفا مسيرتهم إلى المدينة يفيض قلباهما إيمانًا وثقة بانتصار الحق، ويلهج لســانهما بالدعاء إلى الله والحمد لله.

وبلغ محمد يثرب في يوم مجيد من أيام التاريخ، فاستقبله المسلمون بها استقبالا ستظل روعته حاضرة في ذاكرة الأجيال يتوارثون بهجتها جيلًا بعد جيل، استقبالًا تتردد فيه أصداء الأناشيد والأغاريد:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحبًا يا خير داع

وبقدر ما برّح بهم الشوق إلى رؤية رسول الله الذي آمن الكثيرون منهم بدعوته قبل أن يروه، كانت حرارة اللقاء. فلطالما سهرت عيونهم الليالي يعدونها ليلة بعد ليلة بعد أن علموا بهجرته إليهم، ولطالما خرجوا إلى العراء من ديارهم بعد صلاتهم الصبح يرتقبون مقدمه ولا ينصرفون حتى يرتفع النهار وتتقلص الظلال، وتغلبهم حرارة الشمس على أمرهم في ذلك الصيف القائظ في الصحراء كأنه سياط اللهب، ويتلاشى أملهم في رؤية محمد عليه السلام.

وهتف البشـير أن قد جاء رسول الله معبرًا عن ذلك بقوله: يـا بنـي قيلة -الأوس والخـزرج- هذا جدُّكم قد جـاء (يعني: حظكـم) فتدافعت المواكب من كل صوب، وقد اسـتبدت بها اللهفـة إلى رؤيته، وأفعـم حناياها فرط السـرور[٣]. وصدق صاحب البشرى، فلقد كان النبي في ذلك الوقت قد بلغ مشارف يثرب وكان المكان ديار بني سـالم فتلقوه، فمر بالقلوب قبل الأيـدي والعيون، وقيل: إنه نزل على سـعد بن خيثمة، وقيل: إنـه نزل علـى كلثوم بن الهدم، ونزل أبـو بكر على خبيب بن إسـاف، وقيل: بل نزل على خارجة بن أبي زهير، وكلاهما من بني الحارث من الخزرج.

وكان فيمن خرج لينظر إليه قوم من اليهود وكان فيهم عبد الله بن سـلام، قال عبد الله بن سـلام: فلما نظرت إليه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سـمعت منه: «أَفْشُوا السَّـلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُـوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّـوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[٤].

ثم خرج رسول الله من ديار بني سالم، راكبًا ناقته متوجهًا حيث أمره اللـه، وكان اليوم يوم جمعـة، فلما حانت صلاتها صلاها رسول الله في بطن الوادي، واجتمع أهل المدينة حين

---

(٣) ملأ قرارة نفوسهم السرور.

(٤) رواه الترمذي في سننه: (٢٤٨٥) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وقال: صحيح.

دخلها يتشوفون إلى طلعته رافعي رءوسهم مكبرين مهللين. وتنافس الرجال كل منهم يود أن يحظى دون غيره بشرف استضافة رسول الله في بيته.

وفي ذلك يقول ابن عبد البر فيما كتبه من السيرة النبوية: فخرج إليه رجال من بني سالم، منهم العباس بن عبادة وعتبان بن مالك، فسألوه أن ينزل عندهم ويقيم فقال ﷺ: خلوا الناقة فإنها مأمورة. ونهض الأنصار حوله حتى أتى دور بني بياضة، فتلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال منهم، فدعوه إلى النزول والبقاء عندهم. فقال ﷺ: دعوا الناقة فإنها مأمورة. ومضى حتى أتى دور بني ساعدة فلتقاه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ورجال من بني ساعدة، فدعوه إلى النزول والبقاء عندهم، فقال ﷺ: دعوا الناقة فإنها مأمورة. ومضى حتى أتى دور بني الحارث بن الخزرج فتلقاه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة فدعوه إلى البقاء عندهم، فقال ﷺ: دعوا الناقة فإنها مأمورة. ومضى عليه الصلاة والسلام حتى أتى دور بني عدي بن النجار وهم أخوال عبد المطلب فتلقاه سليط بن قيس وأبو سليط من بني خارجة ورجال من بني عدي بن النجار، فدعوه إلى النزول عندهم والبقاء فقال ﷺ: دعوها فإنها مأمورة.

باكورة تدابير الوحدة:

ولا شك أن القرار الذي اتخذه النبي في شأن اختيار مكان مسجده ومسكنه بالمدينة، كان باكورة أعمال النبي في مجال إنشاء وحدة وثيقة بين الأوس والخزرج، فالدلالة واضحة في عدم قبوله ما عرضه عليه كل من الرجال الذين سبقت الإشارة إليهم من الإقامة بمنزله، ذلك أن قبول دعوة مسلم ينتمي إلى الأوس دون مسلم آخر ينتمي إلى الخزرج المنافِسة لها؛ قد يحمل معنى التمييز بين قبيلة وأخرى، وفي هذا ما فيه من احتمالات الانقسام بينهما. ومن ثم قرر النبي أن ينبذ كل عمل قد يوحي بالمفاضلة بين الأنصار بعضهم وبعض، وأن يتبع خطة حكيمة يكون من شأنها التوحيد بين المسلمين من أهل المدينة. فكان إباؤه النزول عن ناقته، وأمره بإخلاء سبيلها حتى تبرك، دونما توجيه، في موضع من المواضع، يتخذ فيه مقامه سواء كان مالكه من الأوس أو الخزرج وبذلك يقطع الطريق على كل مظنة للتفضيل أو التمييز، وتتأكد المساواة بينهما في فضل مناصرة رسول الله ﷺ، فتتألف قلوبهم ويصبحوا بنعمة الله إخوانا.

وذكَّرنا ذلك القرار الحكيم في مغزاه وأسلوبه بقرار مماثل اتخذه الرسول قبل البعثة في موقف التحكيم بين المكيين في وضع الحجر الأسود في مكانه في الجانب الشرقي للكعبة، إذ أتى بثوب فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال: ليأخذ

كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب، فيحملوه جميعًا إلـى ما يحاذي موضع الحجر من البناء، ثم تناوله محمد ﷺ من الثوب ووضعه في موضعه، وبفضل هذا التفكير السـليم حُسم الخلاف وقُضي على الفتنة في مهدها، وحُقنت دماء لم يكن يعلم إلا الله مبلغ ما كانت ستصير إليه لو لم يضع محمد ﷺ هذه الخطة السديدة، ويتخذ هذا التدبير الملائم.

ومما يجدر بالذكر في هذا المقام، إباء رسول الله أن يأخذ مربد غلامي بني النجار إلا بالثمن، فهو موقف مماثل لموقفه حين أبـى أن يأخذ إحدى راحلتي أبي بكـر إلا بالثمن ضاربًا بذلـك المثل فيمـا ينبغي أن يقدمه الحاكـم للرعية من أفعال وأقوال تجعل منه أسوة حسنة لهم.

ومضـى ﷺ حتى أتـى دور بني مالك بـن النجار فبركت الناقة في الموضع الذي بنى فيه النبي بعد ذلك مسجده وداره، وكان هـذا المكان مربد تمر لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار وهما سـهل وسـهيل، كانا في حجر -كفالة- معاذ بن عفـراء وكان فيـه وحواليه نخل وخـرب وقبور للمشـركين، وبركت الناقة وبقي ﷺ على ظهرها لم ينزل، فقامت ومشت قليـلًا وهـو لا يهيجها -ينخسـها- ثم التفتـت خلفها، فكرّت -أقبلت- إلى مكانها وبركت فيه واستقرت فنزل عنها ﷺ.

وقـد قيل: إن جبار بن صخر بن سـلمة وكان من صالحي

المسـلمين جعل ينخسها منافسـة على بني النجار في نزول رسـول الله ﷺ عندهم، فانتهره أبو أيوب بن خالد الأنصاري على ذلك وأوعده، فلما نزل رسـول الله ﷺ عن ناقته أخذ أبو أيوب رحله -متاع الراكب- فحمله إلى داره ونزل ﷺ دار أبي أيـوب في الطابـق الأرضي منها، وبقي مضيفـه مع أهله في الطابق العلوي.

فلما كان بعد أيام سـقط شـيء من ماء أو غبار على رأس النبي في ذلك البيت، فنزل أبو أيوب فزعًا وأقسـم على رسول الله متوسلًا ليصعدن إلى العلو وليهبطن أبو أيوب إلى السفل، فأجابه النبي إلى رغبتـه، ولقد أراد الرجل أن ينزل للنبي عن ذلك المسكن ويسـكن فيه وحده فأبى رسول الله، وكان فعل أبي أيوب هذا مثل فعل أبي بكر حين عرض على رسـول الله فـي الهجـرة خير الراحلتيـن اللتين أعدهمـا ليمتطياهما في الطريق إلى المدينة، مما ينبئ عن فرط حب الصحابة لرسول الله ﷺ.

ولـم يزل رسـول اللـه مقيمًا في مسـكن أبي أيـوب مدة بلغت سبعة أشـهر، كما أورد بعض المؤرخين وأراد في هذه الأثناء أن يبني له دارًا ومسـجدًا في البقعـة التي بركت فيها الناقة، وكان قد سـأل عن مالك المربد فقيل: هو لغلامين كما سـبق البيان، فأراد شـراءه فأبت بنو النجار بيعه وبذلوه لله

وعاوضوا اليتيمين بما هو أفضل، وقد روي أن رسول الله ﷺ أبى أن يأخذه إلا بثمن.

كما أن هذا التصرف النموذجي في مضمونه السامي وهو احتمال المشقة والاضطلاع بالمسئولية كاملة وإيثار الصالح العام على الصالح الخاص، مما يدعم بناء الشخصية الإسلامية ويدعم بالتالي وحدة الجبهة الداخلية ويقوي إيمان المسلمين.

إنجاز الخطة:

أولًا: بناء مسجد النبي بالمدينة:

لم يكد النبي يهبط دار الهجرة ويقيم في دار أبي أيوب حتى شرع في بناء مسجد المدينة فكان يعمل فيه بيديه والمسلمون من المهاجرين والأنصار حوله يشاركون في ذلك العمل الطليعي الجليل، حتى أتموه وأقاموا من حوله مساكن رسول الله ﷺ.

وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن ليرهق أحدًا وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم محمد ﷺ، وكان المسجد فناء فسيحًا بنيت جدرانه الأربعة من الآجر والتراب، وسقف جزء منه بسعف النخل، وترك الجزء الآخر مكشوفًا وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون مسكنًا، ولم يكن المسجد يضاء ليلًا إلا ساعة

صلاة العشـــاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها وكذلك ظل تسع سنوات متتابعة، شدت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التي كان يعتمد سقفه عليها، ولم تكن مساكن النبي أكثر من المسجد ترفًا وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استنارة.

وهكذا أقيم أول بيت لله في المدينة وهو ثاني مســجد في تاريخ الإسلام إذ كان أول مسجد: «قباء»، وارتفع التكبير يملأ الفضاء من مئذنة المسجد خمس مرات في اليوم، وأمة الأنصار والمهاجرين يؤدون فيه الصلوات خلف رسول الله ﷺ حامدين الله رب العالمين الذي هداهم إلى الصراط المســتقيم، صراط الذيــن أنعم عليهم، وضاعف تجمُّــع المهاجرين والأنصار في مســجد الرسول من قوة إيمانهم ووحدتهم واعتزازهم بنبيهم وثقتهم بالنصر على المشركين.

ثانيًا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان الهدف إقامة وحدة عقائدية سياســية بالمدينة، وكان التدبير المناســب لتحقيــق هذا الهدف هــو تنظيم الصفوف للقضــاء على كل شــبهة فــي أن تثــور العــداوة القديمة بين المسلمين في يثرب.

أمــا الأســلوب فقد كان نســيج وحده في تاريخ الإنســانية جمعاء، أســلوب فريد لم يعرفه قائد أمة من قبل ولا من بعد، أســلوب يقوم على الإخاء الإنســاني، إخاء فــي العقيدة وإخاء

في الحقوق والالتزامات؛ ذلك أن رسول الله ﷺ -بعد أن بني المسجد وكان قد مضى على قدومه إلى المدينة خمسة أشهر- دعا المهاجرين والأنصار ليتآخوا في الله أخوين أخوين، فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين، إذ قال النبي لعليّ: أنت أخي في الدنيا والآخرة، أو قال له: أنت أخي وصاحبي، وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد بن أبي زهير أخوين، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين، كما آخى رسول الله بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وبين أبي مرثد الغنوي وعبادة بن الصامت، وبين الزبير وكعب بن مالك، وبين طلحة وأبي بن كعب، وبين سعد بن أبي وقاص وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين عبد الله بن جحش وعاصم بن ثابت، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر، وبين عتبة ابن غزوان وأبي دجانة، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين ابن مسعود ومعاذ بن جبل، وبين أبي سلمة بن عبد الأسد وسعد بن خيثمة، وبين عمار وحذيفة، وبين أبي عبيدة ومحمد بن مسلمة، وبين عثمان بن مظعون وأبي الهيثم بن التيهان، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء.

وهكذا تآخى كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة في أعقاب

هجرة الرسـول مع واحد من الأنصـار، وروي أن المهاجرين والأنصار الذين شملتهم المؤاخاة كانوا تسعين رجلًا: خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، وقيل: كانوا مئة: خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار.

وكانت هـذه المؤاخـاة على المواسـاة والحـق والتوارث، إذ جعـل الرسـول لها حكم إخاء الدم والنسـب سـواء، فكان المهاجرون والأنصار يرث بعضهم من بعض حتى نزلت:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾

(الأحزاب: ٦)

فنسخت هذه الآية ما فرضته المؤاخاة من التوارث، أما ما وراءها من الحق والمواساة فقد ظلا قائمين.

ولقد سـبقت هـذه المؤاخاة، مؤاخـاة بيـن المهاجرين بعضهـم وبعض قبل الهجرة، فآخى رسـول اللـه بين أبي بكـر وعمر، وبين حمزة وزيد بـن حارثة، وبين عبيدة وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وعبد الله بن مسـعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسـعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سـعيد بن زيد وطلحـة بن عبيد الله، وكانـت هذه المؤاخاة على الحق والمساواة فقط دون التوارث.

ولقـد ارتضـى الأنصار هـذا الإخاء مخلصيـن، وبلغ من

قوتــه أن فاق أخوة النســب والدم، إذ تبارى المســلمون من الأوس والخزرج في التنازل لإخوانهم المهاجرين عن بعض أموالهم لســد حاجتهم؛ إذ كان هؤلاء قــد تركوا مكة وتركوا وراءهــم ما يملكون من مال ومتاع، ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيــرون منهم يجدون قُوتَهم، ولــم يكن منهم على جانب من الثــراء والنعمة غير عثمان بن عفان، أما الآخرون فقليل منهــم من احتمل من مكة شــيئًا ينفعه، وقد ذهب حمزة عم الرسول يومًا يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به.

وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، ولم يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شــيئًا فعرض عليه ســعد أن يشــاطره ماله فأبى عبد الرحمن، وطلــب إليه أن يدله على الســوق، وفيها بدأ يبيع الزبدة والجبن، واســتطاع بمهارته التجاريــة أن يصل إلى الثــروة في زمن قصيــر، وأن يمهر إحدى نســاء المدينة، وأن تكون له قوافل تذهب في التجارة وتجــيء وصنع غيــر عبد الرحمــن من بعــض المهاجرين صنيعه إذ كان لهؤلاء المكيين من الدراية في شئون التجارة ما قيل معه عن أحدهــم: إنه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهبًا.

أما الذين لم يشــتغلوا بالتجارة ومــن بينهم أبو بكر وعمر وعلــي بن أبي طالب وغيرهم، فقد عملت أســرهم في الزراعة

فـي أراضـي الأنصـار مزارعة مـع ملاكهـا، وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شـدة وبأسًـا؛ لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كلًّا[٥] على غيرهم، فكانوا يجهدون أنفسهم في العمل أشـد الإجهاد، ويجـدون في ذلك من لذة الطمأنينة لأنفسـهم ولعقيدتهـم ما لـم يكونوا يجدون بمكة، علـى أن جماعة من العـرب الذين وفدوا على المدينة وأسـلموا كانوا في حال من العـوز والمتربة حتى لم يكن لأحدهم سـكن يلجأ إليه، هؤلاء أفرد الرسـول لهم صفة المسـجد -وهي المكان المسـقوف منـه- يبيتون بها ويـأوون إليها، ولذلك سـموا «أهل الصفة» وجعل لهم رزقًا من مال المسـلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقًا حسنًا.

وفي صدق أخوة الأنصار المهاجرين يقول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)

ويقول -جل شأنه- في فضل الأنصار:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ (الأنفال: ٧٢)

---

(٥) ثقيل لا خير فيه، أو عبء على غيره. (المجلة).

وبفضـل هذا التنظيم المحكـم القائم على المؤاخاة اندمج المهاجـرون والأنصـار وتلاحموا فـي كيان واحـد ذابت فيه النزعات الفردية وسـادت الروح الجماعية على أسـاس جديد لم يشـهد التاريخ له مثيلًا، وهو أساس العقيدة لا أساس الدم أو النسب.

ومن المعلوم أن التنظيم بطبيعته سـبيل إلى نشر العدالة وهي هدف أصيل لرسـالة الإسـلام؛ ذلك لأن الفوضى أو سوء التنظيم من شـأنه أن يترك الناس هملًا بلا تحديد للسـلطات والمسـئوليات، فينطرحون على شطآن الضلالة وتستبد بهم الأهواء الجامحة أو تشـتعل نيران الفتنة فيسود الظلم ويشيع اسـتغلال الإنسان للإنسان، حتى يصبح الجور قاعدة والعدل استثناء.

فـلا غرو أن ترتفع في سـماء المدينة لأول مرة راية العدل والمسـاواة، وأن تعمر أرضها بالسـلام بين أهليها المسلمين وأن تصبـح موطـن قوة قوامهـا العقيدة الراسـخة، والكفاح الدائب والتعبئة الكاملة الشاملة، وهي جميعًا سمات المجتمع الاشتراكي الثوري الحق.

قيمة العمل في دار الهجرة:

ولقد أرسـيت من خلال الروابـط الوثيقة التـي ألفت بين

المهاجرين والأنصار قيم إنسـانية واجتماعية ومبادئ مثالية لا عهـد للمجتمع القبلي بها، وإنما هي من شـأن المجتمعات المتحضـرة الفاضلـة، وفـي مقدمة تلـك القيم قيمـة العمل الشريف كوسيلة لكسب الرزق، فلقد قبل المهاجرون في أول الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة ولكنهم أبوا بعـد ذلك إلا أن يبحثـوا عن موارد رزق لهـم، ولا يعولوا على رابطة المؤاخاة التي سعد بها الأنصار، فكان منهم من اشتغل بالتجارة، ومنهم من عمل بالزراعة، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالة على إخوانهم.

ولا شـك أن هـذه التجربة التي خاضهـا المهاجرون في المدينـة تمثـل أول تطبيق عملـي لمبدأ الإسـلام في تأكيد قيمة العمـل والإنتاج لما تؤدي إليه من خلق مجتمع سـليم في علاقات أفراده بعضهم ببعض من جانب، وفي علاقتهم بالدولـة مـن جانب آخـر، وهو الهـدف الأساسـي للعدالة الاجتماعية.

وقد رفع الإسلام شـعار كرامة العمل وجعله أساسًا في تربية الشـعب على المبادئ الديمقراطية والمثل الإنسانية، وبديلًا للقيم الجاهليـة الباطلة التي كانت تزن قيمة المرء بمعيار ما يسـتحوذ عليه من ثراء أو ما يملكه من نفوذ أو جـاه وسـلطان آل إليه، بغض النظر عمـا إذا كان مصدره

مشروعًا أم من طريق الاستغلال.

فالعمل في الإسلام هو القوة الكفيلة بإذابة الفوارق بين الطبقات وإنشاء علاقات اجتماعية إنسانية صحيحة بين الناس، تقوم على الحق والعدل والتعاون، وتقضي على النظم الفاسدة التي ترتكز على استغلال القوي للضعيف، وامتصاص عرق الأجير واستنزاف قواه لحساب صاحب المال المرفه المتعالي، وازدياد الفقير فقرًا والقوي ثراء، وتوسيع الهوة بين الأفراد والجماعات، وما يترتب على ذلك كله من صراعات وأحقاد ومظالم وفوضى يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلًا بعد جيل، وتظل تنخر في كيان المجتمع حتى يتفسخ وتسقط دولته.

ومن ثم رفع الإسلام المكانة التي أولاها للعمل في المجتمع فجعله محور العلاقات الاجتماعية، فلا كسب إلا كسب العمل، والمكان الأسمى في المجتمع للعاملين، والعمل هو أساس التقييم للأفراد والجماعات، وقد ذكر العمل في القرآن أكثر من ثلاث مئة مرة، وقرن الله بينه وبين الإيمان، وبلغ من تأكيد قيمة العمل أن جعله الإسلام عبادة، وهي منزلة لم تصل إليها النظم المعاصرة التي قصرت فائدته على سد حاجات الإنسان المادية والمعنوية.

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أن الإخاء والعمل كانا حجر الزاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتالي في

تأسيس الحضارة الإسلامية التي بنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أول دولة في الإسلام برياسة النبي ﷺ، ثم ترعرعت حتى أصبحت شجرة يتفيأ ظلالها العالم كله.

ثالثا: التحالف مع يهود المدينة:

كانت رابطة اليهود بيثرب تقوم على الإقامة بها واستغلال خيراتها، والإثراء بعائدها من الثمرات والأموال، ولقد اختاروها مقرا لسكناهم دون غيرها من الأماكن بالجزيرة العربية، لما عرفت به أرضها من خصوبة جعلت فيها كثيرا من الزروع والنخيل والأعناب، ولموقعها الاستراتيجي الممتاز، إذ كانت تمر بها القبائل في ذهابها إلى الشام أو عودتها منها، فيشهد الناس بها منافع لهم وتزدهر فيها الحركة التجارية والاقتصادية، وكان يهود يثرب يتألفون من بني قينقاع في داخلها، وبني قريظة في فدك، وبني النضير على مقربة منها، ويهود خيبر في شمالها، وكانت كل جماعة من هؤلاء تشكل إقطاعًا زراعيًّا واحتكارًا تجاريًّا.

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا أهل كتاب ودعاة وحدانية، فإن التاريخ يسجل خروجهم على الرسالات السماوية، وإهدارهم القيم الروحية والمبادئ الإنسانية، وكانت علاقتهم بجيرانهم من الأوس والخزرج في المدينة قبل أن يدخلها الإسلام تقوم على الحقد والمقت، وإذا كان لهؤلاء عذرهم في

عداوتهـم لليهـود بوصفهم من عباد الأوثـان، فماذا كان عذر اليهود وهم أصحاب التوراة؟!

لقـد أسـلم الأوس والخزرج حيـن دعاهم محمـد ﷺ إلى شريعة الحق، وقاموا بدورهم في نشر عقيدة الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكـر، أما اليهود فقد بقوا علـى دينهم، وظلت سياستهم في المدينة تقوم على تدبير الخطط الكفيلة بالإبقاء علـى مصالحهم وامتيازاتهم والاسـتئثار بـكل الخيرات دون غيرهم من السكان.

وقد سبقت الإشارة إلى أن اليهود حين أدركوا أنهم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم وأموالهم والتوسع في المدينة للاستيلاء على مزيد مـن الأرض؛ لفرط حرصهم علـى أرواحهم من أن تزهق في القتال، لجئوا إلى سـلاحهم التقليدي، سـلاح الدس والوقيعة وإشـاعة الفرقة بيـن الأوس والخزرج؛ ليشـغلوهم عنهم بالتنـازع والاقتتال، ويسـتردوا بذلك بعض سـيادتهم المهدرة وسلطانهم الضائع بعد هزيمتهم من نصارى الشام.

وكان يهود المدينة يسـتغلون معرفتهم ببعثة الرسول، فيقولـون للأوس والخـزرج كلمـا اختلفوا معهـم: إن نبيًّا مبعوثًـا الآن قد أطل زمانـه، نتبعه فنقتلكـم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم النبي أولئـك النفر من الخزرج الذين وفدوا إلـى مكة للحـج، نظر بعضهم إلى بعض وقالـوا: والله إنه

للنبي الذي تواعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه.

ودخلوا في دين الله، وقالوا للرسول ﷺ: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، وأن يجمعهم عليك، فلا رجل أعز منك.

ومن ذلك يتبين كيف كان اليهود يستغلون معرفتهم ببعثة محمد عليه السلام في إرهاب الأوس والخزرج بقولهم: إنهم سينضمون إلى النبي المرسل ويحاربون معه، فيجهزون عليهم بحكم رابطة الوحدانية التي تجمع بين اليهود وبينه، مستهدفين من زعمهم هذا إلقاء الرعب في نفوس منافسيهم في المدينة، حتى يصيبوهم بالوهن والعجز عن محاربتهم، ومن ثم لا ينازعونهم في استعمار المدينة واستغلالها، وكانوا يهدفون من جهة أخرى إلى بذر بذور العداء بين الأوس والخزرج وبين النبي المبعوث حين يعلم أولئك أنه سينضم إلى اليهود في شن الحرب عليهم.

ومن الواضح أن اليهود كانوا كاذبين فيما زعموا من عزمهم على محالفة الرسول الذي علموا من التوراة ببعثه في الجزيرة العربية، إذ كانوا قد أعدوا العدة للكيد له ما لم ينضو تحت أجنحتهم، كي يظلوا هم وحدهم أصحاب عقيدة الوحدانية في الجزيرة، وبالتالي سادتها ومستغليها، ولم يكن ذلك تعصبًا دينيًّا منهم بلغ حد الكفر فحسب، بل

كان حفاظًا على سلطانهم القائم على الأطماع.

وقدم النبي مهاجرًا إلى يثرب التي انتشر فيها الإسلام وعلا شأنه، وانتظر أهلها على شوق أن يطلع عليهم البدر من ثنيات الوداع، فلما أشرقت طلعته استقبلوه أعظم استقبال سواء في ذلك المسلمون الذين هاجروا من مكة والذين اتبعوا محمدا من الأوس والخزرج أو الذين لم يدخلوا الإسلام من قبائل المدينة ويهودها، وقد يعجب امرؤ من أمر هؤلاء اليهود؛ كيف يحسنون لقاء محمد، وهم أعداؤه؟! ولكن هذا العجب سرعان ما يزول إذ نتذكر ما طبع عليه اليهود من نفاق ومن رغبة في الوصول إلى أهدافهم بغض النظر عن شرعية الوسيلة.

ومن هنا أقبل اليهود على استقبال الرسول متظاهرين بالمودة، لعلهم يجنون بها ما لا يجنون بالمجاهرة بالعداء، لاسيما أنهم شاهدوا بأعينهم ما كان عليه الإسلام من بأس وقوة في المدينة، ولا غرو أن يحيطوا بالرسول بين من أحاطوا به لعل ذلك يفيدهم سياسيًّا واجتماعيًّا، أما إذا مالت الريح عن محمد فهم معها حيث تميل، وإن هذه لموهبتهم التي لا يجاريهم فيها أحد من بني البشر، ويعلِّل أحد الباحثين مبادرة يهود المدينة إلى حسن استقبال النبي بظنهم أن في مقدورهم استمالته إليهم، وإدخاله في حِلْفهم والاستعانة به على تأليف جزِيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي

أَجْلَت اليهود-شعب الله المختار في زعمهم- عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومي كما يفترون.

وظل اليهود يرقبون في حذر تزايد النفوذ الإسلامي بالمدينة والغيرة تنهش صدورهم، والنبي الكريم يؤمنهم ويكفل لهم حرية العقيدة، مثلهم في ذلك مثل المسلمين والنصارى كلهم سواء في تلك الحرية، بل إنه ﷺ كان يفسح لليهود صدره ويوثق معهم صلاته، فيتحدث إلى رؤسائهم وهو صاحب السلطان الأكبر في يثرب، ويمنحهم مودته، ويسبغ عليهم من عطفه ووفائه وبره حتى ليصوم يوم صومهم، فضلًا عن رابطة بيت المقدس التي تصله بهم، إذ كانت قبلته في الصلاة كما كانت قبلة أنظارهم ومثابتهم جميعًا.

واتجه الرسول بادئ ذي بدء إلى إنشاء وحدة سياسية ونظامية واجتماعية -كما أسلفنا- بين سكان المدينة من المسلمين واليهود، ومهد ذلك بتوحيد المسلمين بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم بدأ يعمل بعد أن كسب مودة اليهود على عقد تحالف سياسي معهم بوصفهم أهل كتاب موحدين ضد المشركين من قريش.

وجاء هذا العقد ضمن صحيفة «وثيقة» كتبها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، إذ واعد فيها اليهود وعاهدهم وأقرهم على عقيدتهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرَط لهم:

«فمن تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة -أي: المساواة في المعاملة- غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفُسُهم، إلا من ظَلَم أو أَثم، فإنه لا يوتِغُ -يُهلك ويُفْسد- إلا نفسه وأهل بيته.

وإن ليهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جُشَمَ ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة ولجَفْنَةَ ولبني الشَّطيبةِ مثل ما ليهود بني عوف، وإن موالي ثعلبة كأنفُسِهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وأنه لا يُنحَجَز على ثأرٍ جرحٌ -لا يلتئم جرح على ثأر- وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته؛ إلا من ظُلم وإن الله على أبر هذا[٦].

وإن على اليهود نفقَتهم وعلى المسلمين نفقتَهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن المُجَار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة

(٦) «على أبر هذا» أي: على الرضا به. (المجلة).

إلا بـإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشـتجار يخاف فسـاده فإن مـرده إلى اللـه وإلى محمد رسـول الله ﷺ، وأن اللـه علـى أتقى ما في هـذه الصحيفة وأبـره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهـم علـى المؤمنين إلا مـن حارب في الديـن: على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبلهم.

وإن يهود الأوس مواليهم وأنفُسَـهم على مِثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحـض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنـه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإن من خرج آمِـن ومن قعد آمـن بالمدينة إلا من ظلم وأثـم، وإن الله جار لمن بَرَّ واتقى»[٧].

وتُثبِتُ هـذه الوثيقـة التاريخية مدى الحقـوق والحريات الواسـعة التي منحها محمـد ﷺ ليهود المدينـة ممن وقَّعوا عليها، حقوق وحريات مدنية وسياسـية وعقائدية يتسـاوون بهـا مع المسـلمين، كما تسـجل الالتزامات التـي ألقيت على كاهلهم والتي تكفل لهم بدورها المساواة مع المسلمين، وهي

(٧) من سيرة ابن هشام:١/ ٥٠٣ بتصرف. (المجلة).

التحالف في الدفاع عن المدينة إذا هاجمتها قريش، والتضامن مع المسلمين في احترام نصوص هذه المعاهدة.

لذلك لم يمض غير قليل حتى أقبل يهود بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، وكانوا لم يشتركوا في التوقيع على هذه المعاهدة يعلنون عن رغبتهم في الانضواء إليها، ويقبل النبي هذا العرض فيوقِّعون عليها.

وانصرف النبي بعد تأمين الجبهة الداخلية بمقتضى هذا العهد إلى شئون الدين، وإلى تدعيم القيم الرُّوحية في نفوس المسلمين، بإشاعة الإخاء والعدل والمحبة والرحمة بين بعضهم وبعض من طريق القدوة الحسنة، واضعًا بذلك أركان الدولة الإسلامية الأولى التي قامت على أكتافها أسس الحضارة الجديدة.

تلك هي التدابير التي اتخذها رسول الله ﷺ تنفيذًا لخطة العمل في المدينة: بناء المسجد، وتوحيد المسلمين، وعقد معاهدة مع اليهود، ولقد نجحت تلك التدابير نجاحًا كاملًا فيما عدا محالفة اليهود؛ إذ كان نجاحها جزئيًّا، وإن كان قد أوفي بغايته في المرحلة الأولى؛ ذلك أن اليهود سرعان ما قلبوا للنبي ظهر المِجَنّ[٨]، ولم يقدروا مزايا الحلف الذي كفل لهم جميع الحقوق والحريات، فخالفوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم،

---

(٨) المجن هو الترس، ويقولون: قلبَ له ظهر المجن أي: عاداه من بعد مودة، يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد. (المجلة).

وبـدءوا يكيدون للنبي وينكرون نبوته ويتآمرون ضده مع من بقـي على الشـرك من الأوس والخزرج ومن أسـلم منهم نفاقا رغبة في مغنم أو اتقاءً لمغرم، وقد غلبت عليهم طبيعتهم وما جبلوا عليه من مكر سـيّئ حتى تآمروا على اغتيال رسول الله بعد أن عجزوا عن الوقيعة بين المهاجرين والأنصار، والتفرقة بين الأوس والخزرج، ثم تحالفوا سـرًّا مع المشـركين من أهل مكة لاقتحام معقل المسلمين بالمدينة عنوة.

فلم يكن ثمة مناص من الضرب على أيديهم بشدة، فكانت غزوتـا بني قينقاع وبني النضير، ثـم غزوة خيبر التي انتهت بانتصار الإسلام وسقوط أعدائه.

وبعـد، فما أشـبه الليلـة بالبارحة، وما أجـدر بنا في ظل المرحلة الحاسمة التي تمر بها أمتنا العربية أن نتدارس هجرة النبي ﷺ في ضوء علم التخطيط والتنظيم والقيادة والإدارة، ونسـتخلص منها الخطط والأسـاليب التنظيمية القادرة على تأمين ديننا وقوميتنـا ونظمنا الاجتماعية في معركة المصير ضد أعدائنا وأعداء القيم الإنسانية.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾

(الحج: ٤٠)

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

(يوسف: ٢١)

الفصل الخامس

القيادة الإدارية في دار الهجرة

تمهيد

الإدارة والقيادة الإدارية:

يقتضينا بحث القيادة الإدارية التي اضطلع بها محمد رسول الله ﷺ في الهجرة أن نمهد ببيان أهمية الإدارة وتعريفها ومقوماتها، ونخلص من ذلك إلى دراسة الشخصية الإدارية النموذجية كما تبدو من خلال أعمال النبي في مهاجره بالمدينة، وتوافر عناصر القيادة الإدارية فيها.

لقد أصبحت الإدارة علمًا له قواعده وأصوله، وفي تطوره يتبع منهجًا علميًّا ولا يتطور بالمصادفات أو بالشعارات أو بالنوايا الحسنة وحدها، ولذلك غدت الثورة الإدارية من أبرز سمات عصر التقدم الحضاري الذي نعيشه، وتنبع أهمية الإدارة من كونها وسيلة تنفيذ العمل، وبالتالي أداة تحقيق الأهداف.

ويمكن تعريف علم الإدارة العامة بأنه: دراسة نشاط العاملين في مجال معين في سبيل تحقيق أهداف محددة مرسومة، يعبر عنها بالسيادة العامة.

ومن ثَمَّ فإن الإدارة هي: توجيه جهود مجموعة من الأفراد؛ لاستغلال طاقاتهم وإمكانياتهم المتاحة؛ لتحقيق غرض مشترك ومراقبة تنفيذ العمل طبقًا للخطط الموضوعة.

والإدارة -بهذا المفهوم- ضرورة حتمية لكل جهد جماعي،

وهي تقــوم على دعامتين متكاملتين لا قــوام لإحداهما بدون الأخــرى، تتمثــل الأولــى: في الأفــراد المكلفين بــأداء العمل. وتتمثــل الثانية: فــي العمل الــذي يضطلع به هــؤلاء الأفراد، ويمكن القول بعبارة أخرى: إن الإدارة تستلزم:

- وجود أكثر من شخص للقيام بعمل معين.
- أن يكــون الهدف المراد تحقيقه من هذا العمل الجماعي هدفا مشتركًا.
- أن يقوم الرئيس بعبء الإدارة ويقوم غيره بالتنفيذ.

ومن التعريف أيضًا نســتطيع أن نحدد العناصر الأساسية للإدارة فهي لا تخرج عن:

- التخطيط.
- التنظيم.
- التوجيه.
- الرقابة.

وهذه العناصــر يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا، وإن عــدم الاهتمام بأحدها يؤثر على تحقيــق الهدف تأثيرًا كبيرًا. فالتخطيــط رغــم اســتقلاله بذاته كأول خطــوة من خطوات الإدارة لا يمكــن أن ينتــج أثره أو يجدي ما لــم يعقبه تنظيم دقيق للعمل يتضمن تقســيم الواجبات، وتحديد المســئوليات والســلطات، وتوضيح العلاقات، وإيجاد وسائل فعّالة للرقابة

على مختلف نواحي النشاط.

ورغـم أهميـة التخطيط والتنظيـم كما سـبق أن بينا في الفصلين الثاني والثالث؛ إلا أنهما يعتبران خطوتين في سبيل التجهيـز أكثـر منهما في نطاق التنفيذ، ولـذا يلزم أن يتوافر العنصـر الثالث من عناصـر الإدارة وهو التوجيـه، أي يجب تهيئة سبل الاتصال بالمرءوسين وتسهيلها لمداومة إرشادهم عنـد القيام بعمليـة التنفيذ، وخلق الحوافـز التي ترغبهم في العمـل وتدفعهم إليه بروح الفريق، وذلـك عن طريق القيادة الرشيدة.

والعنصـر الأخيـر مـن عناصـر الإدارة يعد أهمهـا، وهو الرقابـة، وهـذا العنصر يعنـي: ضرورة التأكد مـن أن تنفيذ الأعمال يسـير وفقا للخطة السابق إقرارها واعتمادها، وطبقا للتوقيتات الزمنية وبالوسائل المحددة سلفًا ، ويجب أن تشمل الرقابة جميع مراحل التنفيذ حتى يمكن تصحيح الانحرافات أولًا بـأول، والتصحيح يكفل ما سـبق أن فرضناه في الخطة من ضرورة توافر خاصية المرونة فيها، وتأسيسًـا على ذلك، فإن التخطيـط هو الخطوة الأولى للعمل، ويعقبه التنظيم أما التوجيـه والرقابة فإنهما يبدآن معا منـذ اللحظة الأولى لبدء تنفيذ الخطة، ويسـتمران حتـى يتحقق الهـدف، وأما اتخاذ القرارات فإنه عملية مستمرة تبدأ مع أولى خطوات التخطيط وتستمر حتى ينجز الهدف.

وغنـي عـن الذكـر أن تحقـق هـذه المواهـب والقـدرات فيمـن يتولى رئاسـة الأمة وإدارة العمل من شـأنه أن يجعله أهـلا للقيادة الإدارية، ومـن هنا أصبحت تلـك القيادة إحدى الموضوعات المتشـعبة التي يتألف منها علـم الإدارة العامة، وأصبـح لا غنى عـن الإلمام بها لكل من يعنى بشـئون الأمة، ويعمل على إصلاحها.

تعريف القيادة الإدارية:

لا شك أن جماعة العاملين في مجتمع أو ميدان ما، لا يمكن أن يسـتقيم أمرها وتصبح وحدة واحدة متماسكة قادرة على النهـوض بأعبائهـا ما لم يكـن لها قائد تتوافـر فيه مقومات القيـادة الحكيمة، فالقيادة الإدارية ضرورة حتمية يسـتحيل دونها أن يحقق المجتمع أهدافه في الارتفاع بمسـتوى أفراده وإقـرار العدل والخير والسـلام بينهم، والمشـاركة في ركب التقـدم الحضاري، ولا بـد من وجود هذه القيـادة في جميع المسـتويات ابتداء من الدولة حتى أصغر قطاع في المجتمع. وهـي تتمثل في الأشـخاص الذين ارتضتهـم الأمة حكاما لها في مختلف أوجه نشاطها، فالدور الذي يضطلع به القائد في مجال إدارة الأمة وقت السلم لا يقل أثرا في تدعيمها وتوحيدها وتحقيق غاياتها من دور القائد في المعركة الحربية، ومن هنا كانت الدراسـات المسـتفيضة التي تتناول خصائص القيادة وصلاحيـات القائد في مجال علـم الإدارة وتأثيرها البالغ في

حياة الشعوب والمجتمعات والجماعات.

وقد تعددت تعاريف القيادة ونظرياتها وأنماطها، فيعرفها بعض الباحثين الغربيين بأنها:

«عملية تأثير متبـادل يؤدِّي عن طريق تضافر الأفراد رغم ما بينهم من فروق- إلى توجيه النشـاط الإنساني سعيًا وراء مسألة مشتركة».

كما يعرفها آخرون بأنها:

«القدرة على التأثير في الناس ليتعاونوا في سبيل تحقيق هدف يرغبون فيه».

وثمة تعريف آخر للقيادة بأنها:

«الشخصية في تفاعلها مع ظروف جماعية».

وقد وضع بعـض المؤلفين العرب التعريف التالي للقيادة الإدارية: «القيادة هي المقدرة على توجيه سـلوك جماعة في موقف معين؛ لتحقيق هدف أو عدة أهداف».

ويلاحـظ أن جميع هـذه التعاريـف، وإن اختلفت القوالب التـي أُفْرغت فيها، تلتقي في مضمون أساسـي وهو التفاعل أو التأثير أو الإشـعاع الذي يسـري تياره بيـن القائد والأمة، فيؤمنون بهدف واحد، ويتفقون على أسلوب واحد في العمل.

على أن اصطلاح القيادة يستخدم أحيانًا لدلالات أخرى، فقد يقصـد به تلك الصفة التي تخلعها الأمة على فرد من أفرادها، تتوافر فيه مناقب وقدرات معينة، تجعله أهلًا للصدارة وأحق

بالرياسة، فتنزله الأمة منها منزلة الحاكم وتكل إليه تدبير شئونها وحل مشكلاتها وتوفير أمنها ورخائها.

وقد ينصرف معنى القيادة إلى السلطة الرئاسية التي يفوضها الشعب إلى أحد أبنائه أو جمع منهم توسمت فيهم القدرة على السير بها في سبيل تحقيق الأهداف والآمال التي تجيش في صدرها كذلك، فإن لفظ القيادة قد يرمز إلى صاحبها؛ لتنصرف القيادة بهذا المعنى إلى الأمة الحاكمة التي تحتل المراكز العليا في المجتمع، وتشغل منه الصفوف الأمامية، ويسمى سائر أعضاء الأمة حينئذ بالقاعدة نسبة إلى مكانهم من البنيان الاجتماعي وموقعهم من خط السلطة.

وقد استخدمنا مصطلح القيادة في هذه الدراسة بمعنى: «القدرة على توجيه مجموعة من الناس يستهدفون غرضًا واحدًا، ويجتمعون على مبادئ واحدة ومنهج واحد في سبيل تحقيق هدفهم».

نظريات القيادة:

أما النظريات التي تفسر القيادة فثمة نظرية يطلق عليها: «نظرية السمات»، وهي تنادي بأن القائد يتمتع ببعض السمات التي تؤهله للقيادة، أما التابع فيفتقر إلى بعض هذه السمات، ولذلك لا يمكنه أن يقوم بدور القائد.

بيد أن كثيرًا من النقد قد وجه إلى هذه النظرية؛ إذ إنه لا يمكن تحديد السمات التي أشارت إليها بصفة دقيقة، وإذا

كان للقيــادة بعض مقوماتها التي يجب أن تتوافر في القائد، فإن تلك المقومات لا ترتقي إلى ســمات على درجة عالية من الثبات.

وتذهب النظرية الثانية وهي نظرية الموقف إلى أن القيادة لا ترتبــط كلية بالفــرد القائد، بل إنها ترتبــط أيضًا بالعلاقة الوظيفيــة بينه وبين أعضاء الأمة، وأن العامل المشــترك بين القادة ليس هو سمات معينة، ولكنه مقدرة القادة على إظهار معرفــة أفضل أو كفــاءة أكثر من غيرهم فــي مواقف معينة، ومعنى هذا أن الموقف هو الذي يحدد القائد.

ولمــا كان الموقف يحــدد بعض المعايير التــي تتضمنها العناصر المتداخلة فيه، فإن الشــخص الذي تنطبق عليه تلك المعايير أكثر من غيره هو الأقدر على التعامل مع الموقف من غيره، فيصبح تبعا لذلك هو القائد، وربما لا تنطبق على نفس الشــخص معايير موقف آخر فلا يصبــح قائدا، وربما أصبح تابعًا لشخص كان يقوده في موقف آخر.

ويتبيــن من ذلــك أن فيصل التفرقــة بيــن النظريتين: أن نظرية السمات تحدد عدد القادة، على حين أن نظرية الموقف توسع من قاعدة القيادة، بمعنى أن كل شخص يمكن أن يغدو قائــدًا في بعض المواقف، وذلك إذا توافرت فيه الصفات التي يتطلبها الموقف.

وثمــة نظريات أخرى في تفســير القيادة، ومــع ذلك فإن جميــع النظريات -على اختلاف مذاهبها- تســلم بأن للقيادة مقومات ينبغي توافرها؛ حتــى يمكن أن نطلق على صاحبها وصف القائد.

فيصل التفرقة بين القائد والرئيس:

وقبــل أن نتناول بالتحليل مقومات القيادة الإدارية النبوية فــي دار الهجــرة، نود أن نشــير إلى أن بعض علمــاء الإدارة العامــة يطلقون اصطلاح القيادة على الســلطة التي لها حق إصــدار القرارات، ولكنا نؤثر عدم الأخــذ بهذا التعريف حيث إنه ينطبق على القائــد كما ينطبق على الرئيس مع ما بينهما مــن فــارق كبير في المعنــى، ومن خلال هذا الفــارق تتبلور خصائص القيادة الحقة...

علــى أن التفرقــة بين القيادة والرئاســة لا تصــل إلى حد وصفهما بأنهما نقيضان، فالرئيس الكفء يســتطيع أن يبلغ مرتبــة القيادة إذا كان مؤهلًا لها، وكثيرًا ما شــاهدنا رؤســاء يندمجــون في الإدارات التي يتولون أمورهــا، ويتعاونون مع ســائر العاملين بها، فينظر الفــرد إلى الرئيس أو المدير على أنــه عضو في الأمة وقائد لها في الوقت نفســه، ومن هنا فإن القيــادة تتعلق بشــخص الرئيس نفســه، فالرئيس الموهوب الذي يشــغل منصبًا صغيــرًا في إمكانه أن يرتفع بمســتوى رئاســته إلى درجات القيــادة الناجحة، على حين أن شــاغل

المنصب الرئيسي قد يعجز عن الوصول إلى مستوى القيادة لعدم توافر مقومات القيادة في شخصه.

مقومات القيادة وتفسيرها:

وقد أجمع الباحثون على أن القيادة في أي مجال من المجالات موهبة تصقلها الممارسة والتجربة، وأن القائد تتوافر له عدة مؤهلات أولاها الشجاعة والجرأة ثم الذكاء وبعد النظر وقوة الخلق وفهم الطبيعة البشرية، ومن أهم صفات القيادة كذلك العلم والتجربة وسرعة الخاطر، والبت في اللحظات الدقيقة الحرجة، ثم الحماسة وروح الابتكار وحب المغامرة والفطنة والفراسة، وصحة الحكم والقدرة على التنظيم وحسن الإدارة وقوة التأثير والنفوذ الشخصي، والحرص والرزانة وحب العدالة وروح الشرف والواجب نحو الله والوطنية، والتجرد من الحسد أو التطلع إلى المجد الشخصي والصمود للمحنة، وهذه الصفات كلها أو بعضها قد توافرت في القادة العظام الذين خلدهم التاريخ.

وقد انتهى الباحثون من تحليل نفسية الفرد وروح الأمة ودراسة الدوافع والحوافز ومتابعة حركة التاريخ وتطور الحضارات واستقراء سِيَر العظماء والأبطال في تاريخ الإنسانية إلى وضع عدة نظريات في مقومات القيادة، وتعزو إحدى هذه النظريات ما يمتاز به القائد الناجح من صفات إلى القوة النفسية الواحدة، وتعزو الأخرى مزاياه إلى القوى

النفسية العامة، على حين تذهب النظرية الثالثة إلى أن صفات القائد إنما تصدر عن القوى النفسية الخاصة بنوع معين من القـادة، ولئـن تضاربت هذه النظريات الثـلاث في مضمونها النفسـي، فـإن ثمة نظرية رابعـة تنحو منحًا مغايـرًا فتعزو جوهـر صفات القائد إلى القوة الجسـمية، وهو أمر لا نسـلم به لما يشـوبه من نزعة عنصرية تسـتغل نتائج علم الأجناس (الأنثروبولوجيا) في تبرير نظريتها غير الإنسانية.

وفـي رأينا أن أفضل النظريات في مقومات القيادة وأولاها بالفهم والدراسـة هي تلك التي تقدم تفسـيرًا صحيحًا قوامه التحليـل النفسـي والاجتماعي لما يمتاز بـه القادة، من قدرة فذة علـى تآلف الأفـراد والجماعات حتى يصبـح الواحد هو الكل، والكل هو الواحد.

ومـن ثـم فقد آثرنـا في هـذا البحـث أن نأخـذ بالنظرية الاجتماعيـة التي تقول: إن علاقـة القائد بالمجتمع هي علاقة اندماج وتكامل، والقائد الحق هو الذي يستطيع بفضل مزاياه وإخلاصه أن يحوز تقدير أعدائه قبل أصدقائه، وفي ضوء هذا المفهوم للقيادة الناجحة حددنا المقومات الأساسـية للقيادة الإدارية في الإسـلام، وكما أسفر عنها تحليل سيرة رسول الله ﷺ بعـد الهجرة إلى المدينـة، بمعنى: الصفـات والمميزات التـي تتوافر فـي القائـد، ولمـا كان القائـد الإداري مرتبطًا

بالعمل السياســي بمعنى الدعوة العقدية، فإن هذه المقومات تصدق على الناحيتين الإدارية والسياسية لاشتراكهما في أهم العناصــر القيادية، وهــي: أن يكون القائــد نابعًا من الأمة له هدف إصلاحي محدد واضح، وأن يكون مؤمنًا برسالته واعيًا بمبادئها، قادرًا على العمل في ســبيل تحقيقها، ذا قدرة على القيادة بدون اســتعلاء على أفراد الأمة، ملتزمًا بما يدعو إليه، قــدوة تحتذى في الســلوك الذي يغلب المصلحــة العامة على المصلحة الخاصة، مؤمنًا بالحرية والقيادة الجماعية القائمة على الشــورى، صبورًا حكيمًا وشجاعًا، ذا بصيرة بالمستقبل وقدرة على التخطيط والتنظيم والإشراف والتوجيه والرقابة.

وقــد تناولنــا أهــم هــذه المقومات فــي المباحــث التالية بالتطبيق على أعمال رسول الله في دار الهجرة.

- الانتماء إلى الأمة.
- قوة الإيمان أو الحافز الصادق.
- القدوة في الالتزام بالدعوة.
- الصبر والمقاومة في مواجهة التحديات.
- التعاون والإخاء بين القيادة والقاعدة.
- الالتزام بمبدأ الحرية والقيادة الجماعية.
- القدرة على التخطيط والتنظيم.

تلك هــي أهم الصفات والمناقب التي يمتاز بها القائد الفذ

في المجتمع؛ فتسلكه في عداد الأبطال والرواد في تاريخ الحضارة الإنسانية.

وإذا رجعنا إلى تاريخ الدولة الإسلامية في العصر النبوي تبين لنا بوضوح أن القيادة الإدارية الرشيدة كانت من أهم القواعد التي بني عليها نظام الحكم في المدينة، ومن ثم كانت عاملًا رئيسًا في ازدهار الدولة فيما بعد وسيادة عقيدتها وحضارتها في معظم أرجاء العالم، وقد ضرب الرسول الكريم لأصحابه -بما أثر عنه من أقوال وأفعال- أعظم المثل لما ينبغي أن يتحلى به القائد الإداري من مناقب وسجايا، إذ كان يحمل على عاتقه من الأعباء الجسام ما تنوء به الطاقة البشرية بحكم تلك الأمانة العظمى التي حملها لهداية الناس من الظلمات إلى النور، وقد وهبه الله من مقومات القيادة ما مكنه من نشر دعوته وإتمام رسالته برغم ما حمله من مسئوليات، وما واجهه من عقبات وتحديات.

وفي ضوء النظريات والأفكار الحديثة التي قدمناها حول القائد والقيادة سوف نتناول مقومات القيادة الإدارية كما تبدو من خلال سيرة الرسول ﷺ في دار الهجرة «المدينة» متابعين هذه المقومات وفقًا لترتيبها آنف الذكر، ونظرًا إلى أننا سبق أن درسنا التخطيط والتنظيم بحسبانهما من القدرات التي تميز بهما النبي قائدًا إداريًّا، فسوف نفصل القول في سائر مقومات تلك القيادة ونخص منها بالذكر الانتماء إلى

الأمة والقدرة على توجيه الأمة، وحفزها إلى الإيمان بالتعاون والتآخي سـبيلًا للنجـاح، وقوة الإيمـان أو الحافـز الصادق والقدوة في الالتزام بالدعـوة والصبر والمقاومة في مواجهة التحديات.

ونشـير بادئ ذي بـدء إلى أنه يصدق علـى الهجرة معنى الإدارة كمـا سـبق أن أوضحناه، إذ كانت توجيهًا من رسـول الله لجهود مجموعة من الأفراد المؤمنين والإفادة من طاقاتهم وإمكانياتهـم المتاحة؛ لتحقيق غرض مشـترك ومراقبة منه لتنفيـذ هذا العمل الجماعي طبقًا لمـا وضعه من خطط، كما كانـت الإدارة التي اضطلع بها عليه السلام ضـرورة حتمية، وكانت تتوافر فيها المستلزمات التي يحددها علماؤها المحدثون من تحديد الأشـخاص المنـوط بهم أداء المهمـة، ووحدة الهدف المـراد تحقيقه، وقيام القائـد بالإدارة وأعوانـه بالتنفيذ، ولا خـلاف أن رسـول اللـه ﷺ كان يجمـع بين العمـل القيادي والمشـاركة في التنفيذ حسـبما سـنبين في المبحث الخاص بالقدوة في الالتزام بالدعوة.

ويتبين كذلك من تحليل أحداث الهجرة في مختلف مراحلها بالنظـر إليها كعمل قيادي إداري: أن ثمـة ارتباطًا وثيقًا بين العناصر الأساسـية لـلإدارة فيها كمـا حددناهـا آنفًا، وهي: التخطيـط والتنظيـم والتوجيه والرقابـة، وأن التخطيط كان الخطـوة الأولى وقد أعقبه التنظيم، وأنهما معًا كان يشـكلان

المرحلــة التمهيديــة أو التحضيريــة، على حيــن أن التوجيه والإرشــاد وإثــارة الحوافــز والرقابــة كانت تشــكل المرحلة التنفيذية، ومن ذلك أيضًا أن النبي ﷺ كان يتخذ قراراته منذ أول خطــوة في الهجــرة حتى أتم تكوين المجتمع الإســلامي الجديد بالمدينة، ويستدل من هذا على أن الهجرة كانت عملًا إداريًّا مثاليًّا وفقًا لأحدث الدراسات.

ومــن الواضح أيضًا أن معايير القائــد الإداري بالمصطلح العصري تطابق شخصية قائد الأمة الإسلامية وقائد الإنسانية الأعظــم، من حيث كونه بشــرًا هيأه الله للاضطــلاع بدعوته، ولولا ذلك لما استقام أمر المسلمين في دار الهجرة، وأصبحوا وحدة واحدة متماسكة حققت أكبر معجزة في تاريخ البشرية حين اســتطاعت نشر رســالتها وحضارتها في العالم بسرعة غير معهودة في زمن بدائي لا تتوافر فيه من وسائل الاتصال والانتقال والتجهيز وغيرها مما نجده في عصرنا الحديث.

ولا ريــب فــي أن تحقق تلــك المعجــزة يثبــت أن الطاقة الإنســانية هي أعظم مــا أتاحه الله للإنســان، وأنها أقوى من تلك الوســائل مجتمعــة، وذلك متى توافرت لهــا قيادة إدارية رشــيدة، إن هذه القيــادة هي التي تجعل الفــرد والأمة كلًّا لا يتجزأ فيصبح «الواحد» عشــرة بل عشــرات في قوته وتصبح الأمة واحدًا في تماسكها.

لقد ســخر الله للإنســان الأرض والجبال والبحار والفضاء

ومكنه من ابتداع الآلات على اختلاف أنواعها، ولكنه قد يصبح عبـدًا لهـذه الآلات إذا افتقد العقيدة الحقـة، والقيادة الإدارية الحقة، فَضَلَّ طريقه، وتفرق شـمله، وتخبط بغير شـعاع من الإيمان والمعرفة والنظام والحكمة، فغدت آلته تستخدمه في الأغراض المنافية للعدل الإنسـاني والكرامة الآدمية، بدلا من أن يسـتغلها هو في تحقيق الخير والسـلام والعدالة والتقدم والرخاء.

وإذا اسـتعرضنا التعريفات الحديثـة للقيادة الإدارية التي أوردناهـا تبيـن لنا: أن القاسـم المشـترك بينها هـو مقدرة التأثير في الأمة وتوجيه سلوكها، الأمر الذي تتميز به شخصية الرسـول الكريم في المقام الأول، فلقـد كانت هجرته مرحلة فاصلـة في التاريخ نقل أمة بأسـرها لا جماعـة محدودة في عددهـا مـن النقيض إلى النقيـض، من الضلال إلـى الهدى، من النور إلى الظلام، مـن الجهل إلى العلم، من العبودية إلى الحريـة، مـن الفرقة إلى الوحـدة، من الجمـود والتخلف إلى التقدم والازدهار، بفضل الإشـعاع الذي كان يسري تياره في موجات متتابعة بينه وبين الناس.

كما أننـا إذا لاحظنا التفرقة التـي أوضحناها بين الرئيس والقائد، أدركنا أن سيدنا محمدا ﷺ إذ شرع في وضع أسس الدولة الإسـلامية الأولى فـي دار الهجـرة، كان يمثل القيادة -وهي أسـمى من الرياسـة- في أشـرف وأكمل صورها، فلم

يكن رئيسا يفرض إرادته على مجتمع المدينة بإصدار الأوامر والنواهـي، وإلـزام أفراد الأمة بتنفيذها، أو يسـتمد سـلطته من القوة بل كان قائدًا يشـارك جماعـة المهاجرين والأنصار أعباءها ومسـئولياتها، كما سـنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد، ويلتقـى معها روحا ووجدانا، وتنبع قوته من هذه المشـاركة وذاك التجـاوب، ويعزز مكانته بقـوة الرأي العام المنبثق من إجماع الأفراد على احترامه وطاعته رغبة لا رهبة.

لقد كان المسـلمون في دار الهجـرة يُقْبلون بل يندفعون بأنفسـهم مختارين لتنفيذ ما يعهد به إليهم قائدهم المختار، بفضل الروح المعنوية التي رفعها في نفوسهم، وتدريبهم على تحمل المسئولية، وزيادة شعورهم بها وتقديرهم لها. فكانوا يعملون ويضحون ويتسـابقون في العطاء بدافع من إيمانهم بالواجب، وكان هذا الإيمان هو الذي سـد الفراغ الناشـئ في المدينة وفي سـائر بقاع الجزيرة العربية التي دخل أهلها في الإسـلام، بعد انتقال رسـول الله إلى الرفيق الأعلى، فلم تشل الحركة إدارة المجتمع بعد ذهابه؛ بل اسـتمر كل يقوم بدوره في نشر الرسالة والسـير بها في طريقها الذي رسمه رسول الله ﷺ.

لقـد اسـتمرت الرسـالة تشـع فيضها علـى العالـم؛ لأن المسـلمين كانـوا قد تشـربوا مبـادئ الإسـلام، وتغلغلت في أعماقهـم مُثُلُه وقيمه التي كان يجدها القائد المبعوث من عند

الله، ولأنهــم قد تعلموا منه اتخاذ التعاون في ســبيل تحقيق الصالح المشــترك أســلوبًا للعمل، أســلوبًا يقــوم على الوعي والمعرفة وحسن تصريف الأمور، وانتهاج السياسة المناسبة والتلاحم بين الحاكم والمحكوم؛ فاستفادوا وارتقى مستواهم الفكري والنفســي بما نقل إليهم من خبراته، وبما زودهم من مشورته القائمة على الفطنة والعلم والرجاحة في الفكر، وما كان يتبعه من سياســة المســاواة وعدم التمييز بينهم إلا على أساس العمل والعلم والتقوى.

الانتماء إلى الأمة:

إن فيصل القول في وظيفة القيادة الناجحة -كما أسفلنا- أنهــا القيام بتلك الأعمال التــي تعين أعضاء الأمة على تحقيق هدف مشــترك يقتنعون بأهميته، فيتفاعلون بطريقة تضمن تماســكهم وتحركهم في الاتجاه الملائم، ومن ثَمَّ، فإن انتماء القائــد إلى الأمة يقع في المقام الأول من الأهمية بين مقومات القيادة الأصيلة، لأنه يصل القائد بقومه برباط نفسي وفكري، ويجمع بينهما في سبيل واحد لتحقيق غاية واحدة.

وقد دلت الدراسات النفسية والاجتماعية التي تناولت سير القــادة خــلال العصور المختلفــة على صدق هــذه النظرية، فأجمــع الكتاب والباحثــون والمتخصصون علــى أن الانتماء يحقق للقائد الإحساس بمشاعر الأمة واحترام تقاليدها وتبني نمط تفكيرها، وهي جميعًا عناصر جوهرية في بناء شخصية

القائد وقدرته على كسب الرأي العام، ذلك أن هذا التجانس النابع من الانتماء عامل أساسي في تيسير مهمة القائد لم ينشأ عنه من تجاوب بين القمة والقاعدة، وطالما تحقق هذا التجاوب فإن ثمة ضمانًا لوجود أهم مقومات النجاح في العمل.

فالقائد الذي ينبثق من صميم الأمة سرعان ما تهوي إليه أفئدة العناصر الصالحة منها بحكم تآلفها الوجداني والعقلي والاجتماعي معه، وشعورها أنه لم يفرض عليها، وإنما اختير من صميم بيئتها ومجتمعها، فهو قد نما وتطور في ظل الظروف التي أحاطت بها والمراحل التي مرت بها، وإن كان يمتاز عن كل فرد من أفرادها بصفات ومناقب خاصة تجعله أهلًا لشغل مكان الصدارة منها.

ومن هنا يلتقي القائد والأمة على أرض واحدة، ويتفاهمان بلغة واحدة، ويحسان بمشاعر متشابهة، وتلك هي نقطة الارتكاز التي تبدأ منها مسيرة الجميع نحو الهدف المنشود في ظل دفع مستمر أشبه بموجات تسري في الأمة من تأثير القائد فيمن حوله، وتأثرهم به في حلقات متصلة بغير انقطاع، ويسفر هذا عن تفاعل إيجابي يؤدي بدوره إلى حب كل فرد لعمله، وإيمانه بدوره وتقديره للعاملين له وتعاونه في سبيل الصالح العام.

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن الرئيس الكفء يستطيع

أن يكون قائدًا، فإن مثل هذا الرئيس مهما بلغت كفاءته يعجز عــن الوصول إلى هذه المرتبة إذا لم يكن منتميا إلى الأمة، بل يظل رئيسًا فحسب؛ لأنه بغير هذا الانتماء لا يستطيع التفاهم معها أو إدراك حقيقة مشاعرها وتقدير رغباتها واحتياجاتها ومعرفة مشاكلها والقدرة على تحريك هذه المشكلات للوقوف على الأســباب التي تكمن خلفها، ووضع حــل للقضاء عليها، ومعنــى هذا أن الرئيس الذي يفتقــد الانتماء يصبح قريبًا من الأمة بشــخصه، ولكنه يظل غريبًا عنهــا بالفكر والروح، ومن العســير في ظل هــذه العزلــة أن يحقق أي نجــاح في إدارة شــئون الأمة، والسير بها في ســبيل إنجاز الأغراض المنوطة به....

كذلك، فإنه ينشــأ عن عدم انتماء الرئيس إلى الأمة أن يلجأ إلى أســلوب التفرقة بين المرءوســين بقصد إظهار ســلطانه وإخفاء عيوبه، فهو يعمد إلــى المحاباة والتحيُّز، فيقرب هذا ويبعد ذاك. ويشــغل الجميع بذلــك عن تحقيق أهداف العمل، على حين أن القائد المنتمي ينتهج أســلوبًا آخر، فهو حريص علــى أن يؤلف بين الأفــراد في وحدة متجانســة، وأن يحثهم على تضافر القوى والجهود في ســبيل رفع شــأن الأمة، ومن هنا جاء تعريف القيــادة بأنها القدرة على التأثير في الناس؛ لجعلهــم فريقــا واحدا يتعاون في ســبيل هدف ينشــده، ولا تتســنى هذه القدرة بغير الانتماء فالانتماء هو الذي يدفع إلى

الولاء، والولاء يدفع إلى الإخلاص والتضحية.

وإذا أمعنا النظر في سيرة الرسول ﷺ على ضوء مفهوم الانتماء إلى الأمة كما أوضحناه، أدركنا مدى اكتمال هذا العنصر القيادي في القائد الأعظم للأمة الإسلامية، بحكم المنبت والتنشئة الاجتماعية، إذ كان عليه السلام أكثر العرب تمثيلًا للخصائص العربية في جوانبها المشرقة من كرم وشجاعة وشرف ومروءة ونجدة وحماية للجار وعفو عند المقدرة ... وما إلى ذلك من خلال كريمة، وكان أقدرهم على فهم مشاعر قومه وأفكارهم ودوافعهم وأهدافهم، وبالتالي التأثير فيهم وكسب الرأي العام إلى جانب دعوته السامية، وإلى معنى انتماء النبي إلى العرب الذين خاطبهم برسالته تشير الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

ذلك أن الشريعة الإسلامية قد نزلت على الأمة العربية فاختار الله لها نبيًّا من أبنائها، واجتباه من مكة مدينة البيت الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام والتي يعتبر أهلها أكثر العرب تمثيلًا للمقومات العربية، فأنزل الله رسالته علي نبيه محمد فيها، وشاء سبحانه أن ينتمي رسوله إلى قبيلة قريش أكبر

القبائل العربية، وإلى بيت عبد المطلب أعرق بيوتها وأطهرها وأتقاها.

ولقد غابت حكمة انتماء الرسول إلى قومه عن نفر من العرب طمس الله على قلوبهم، وأعمى بصائرهم فهم لا يفقهون، فاستنكروا أن ينزل الله رسالته على بشر مثلهم لا يختلف عنهم في شئون الخلق والحياة، وما أبلغ الصورة التي تعبر عن هذا الموقف في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

(الفرقان: ٧ - ٩)

ومن قبل هؤلاء الضالين كان أسلاف لهم في العصور القديمة أنكروا على أنبيائهم ما أنكره هؤلاء، غير مدركين أن انتماء الرجل صاحب الرسالة إلى الأمة التي يتوجه إليها برسالته تلك سر من أسرار نجاحه، وأن هذه الخصيصة من أهم خصائص القيادة ومقومات القائد، يقول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ

ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾

(الفرقان: ٢٠)

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾

(الكهف: ١١٠)

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٣)

﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾

(فاطر: ٢٤)

﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

(الجمعة: ٢)

وهكذا نبعت الرسالة والرسول من صميم الأمة العربية التي أنزلت عليها شريعة الحق، فكان انتماء النبي إلى الأمة التي بعثه الله لقيادتها وبعثها من الضلال إلى الهدى من أسباب نجاح الرسالة العظمى التي اؤتمن عليها ﷺ؛ إذ أتاح له هذا الانتماء أن يتحدث بلغة هذه الأمة، ويتفهم شعورها باعتباره واحدًا منها اصطفاه الله من بين أفرادها، وأن يدرك

نوازعهـا الوجدانيـة واتجاهاتها العقلية فـي مختلف مناحي الحياة والمجتمع، الأمر الذي يشـكل عاملًا أساسًـا في تيسير الدعوة إلى الرسالة والاقتناع بها قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤)

﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (فصلت: ٣)

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ (الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥)

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٨، ١٩٩)

تلك هي الأصول العامة في خاصية انتماء القائد إلى الأمة، وتحققها في سـيرة الرسـول ﷺ، وسـوف نعرض فيما يلي تحليـلًا لعناصر هذه الخاصية، والعوامل التي سـاعدت على اكتمالها في حياة القائد الأعظم.

فقد نبع الرسـول من صميم العرب -موطنًا وقبيلة وبيتًا- كمـا تقـدم، وفي ذلك يقـول ﷺ: «أَنَـا أَعْرَبُكُم، وأَنَا قُرَشِـيٌّ

وَاسْـتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَـعْدِ بْنِ بَكْرٍ»[٩] ويقول: «إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْـرَأَةٍ مِنْ قُرَيْـشٍ، كَانَتْ تَـأْكُلُ الْقَدِيدَ»[١٠] ويقـول: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِـمٍ، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِـمٍ، فأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ»[١١].

ولما كانت القدرة على فهم مشـاعر الأمة وأفكارها -نتيجة لانتماء القائد إليها- تتدعـم وتتعمق إذا كان القائد قد مارس الحرفة الرئيسـية للجماعة واختلط بالسواد الأعظم منها، كي يتاح له من التجارب والخبرات ما يعينه على أن يسـبر أغوار القطاعـات المختلفـة في مجتمعـه، ويدرك مغزى سـلوكها وتفكيرها وأسـرار اتجاهاتها وتطلعاتها فيسـتطيع قيادتها، ويسـلس له تدبير أمورها، لما كان الأمـر كذلك، فقد أراد الله لرسـوله الكريم أن يكتسـب هذه التجـارب والخبرات ليؤهله للاضطلاع برسـالته؛ إذ اشتغل النبي في صباه وشبابه برعي الأغنـام والتجـارة، وهمـا المهنتان السـائدتان فـي الجزيرة العربية في ذلك الحين، واقتضاه ذلك الأمر الانتقال من مكان إلى آخر، والاتصال بنماذج مختلفة من الناس في أثناء رحلاته

(٩) الروض الأنف للسهيلي ٢٩٤/١، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة البابي الحلبي، ص١٦٧.

(١٠) رواه الطبراني في معجمه الأوسط، من حديث جرير بن عبد الله البجلي، برقم: ١٢٦٠، والحاكم في مستدركه برقم: ٣٧٣٣.

(١١) رواه الإمام مسلم (بنحوه) من حديث واثلة بن الأسقع، برقم: ٢٢٧٦.

وأسـفاره، وفي ذلك يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد في كتابه: «عبقرية محمد»:

«خبيـر بـكل ما يختبـره العـرب من ضـروب العيش في البادية والحاضرة، تربى فـي الصحراء وأَلِفَ المدينةَ، ورعى القطعان، واشتغل بالتجارة».

وكما شـارك الرسـول الطبقـة العاملة الكادحـة والطبقة المتوسـطة في مجتمع قريش في وسائل كسب العيش، فلقد شارك كذلك عِلية القوم، وذوي الرأي منهم فيما كانوا يشتغلون به من شئون الحكم، وتدبير أمور المجتمع في السلم والحرب معًا، فشهد الحروب كما شهد الأحلاف.

ومـن الثابت في هـذه المقام أن النبـي ﷺ قد حضر في شـبابه حلف الفضـول الذي عقده بنو هاشـم وزهرة وتميم، وتعاهدوا فيه باسـم اللـه المنتقم ليكونُن مـع المظلوم حتى يُؤدَّى إليه حقُّه، وقال الرسـول في هذا الحِلْـفِ: «مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي بِحِلْفٍ حَضَرْتُهُ فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ حُمْرُ النَّعَمِ»[١٢].

ومن ثم نشأ الرسول في قلب البيئة العربية وخالط جميع أوسـاطها، وكان قريبًا من سـراتها، غير بعيـد من فقرائها، فلما نـزل عليه الوحي وأُمِر بالدعوة، صـدع بها في مجتمع ولد وعـاش في كنفه مخالطًا أهل سـائر القبائـل والبيوت،

(١٢) رواه ابن حبان في صحيحه (بنحوه) من حديث عبد الرحمن بن عوف، برقم: ٤٣٧٣.

عالمًا بظروف هذا المجتمع، ملمًّا بمعتقداته وتقاليده، خبيرًا بوسائل عمله، متقنًا لغته، واعيًا أسرار تصرفاته، وقد أتاحت هذه النشأة وتلك التجارب، لمحمد رسول الله أن يحدد -بوحي من الله- أفضل السبل لهداية العرب إلى الدين الحق فكان يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويدعو الرجل منهم إلى الإسلام بالأسلوب الذي يتفق مع مستواه، فهو ﷺ -بحكم معرفته بطبائع كل جماعة- يستطيع أن يختار الخطة الفكرية المناسبة لإقناعها، وهو -بحكم تعمقه في فهم النفس البشرية- يستطيع أن ينفذ إلى عقل العربي وقلبه، ويفتح عينه على نور العقيدة الصحيحة. إن النبي الكريم يدرك مدى اعتزاز العربي بكرامته وأنفته من التعالي عليه، وتمسكه الشديد بالعزة والكبرياء، ومن ثم فإن انتهاج أسلوب اللين في غير ضعف، والبعد عن كل ما ينفر المخاطب، هو الطريق القويم للدعوة، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)

والعربي ابن البادية، ومنها أخذ جوهر طباعه وأسلوبه في

الحياة والعمل، يميل بطبعه إلى البساطة، وينفر من التعقيد. وهو يؤثر الوضوح والصراحة في العلاقات الاجتماعية، ويستنكر الغموض المجافي للفطرة السليمة، ولقد بُعث الرسول لهداية الناس إلى عقيدة تتفق مع الفطرة، وكان سبيله في حث الناس على الدخول في دين الله متسقًا مع تلك الغاية، فهو السبيل الواضح المستقيم لا عوج فيه ولا انحراف.

وهكذا كان محمد ﷺ حينما نزل عليه الوحي مهيئًا للدعوة، معدًّا وقادرًا على النهوض بمسئولياتها، ولقد اقتضته سعة الرسالة وبعد مراميها أن يعمل- بوحي من الله - على دعم هذا العنصر القيادي وتوسيع آفاقه، حتى يخرج لفظ «الأمة» من معناه الضيق الذي ينصرف إلى أقرباء الرسول ممن تربطهم به صلة الدم، إلى معنى أوسع وهو قبيلة قريش بأجمعها، ثم إلى معنى أعم وهو المجتمع العربي في سائر جوانب الجزيرة العربية، ثم ينطلق بعد ذلك إلى العام الشامل وهو مجتمع العالم القائم حينئذ بأسره، ثم يستقر أخيرا إلى معنى المجتمع البشري في كل عصر وكل أوان.

ولكي يرتفع عنصر الانتماء إلى مستوى قبيلة قريش بأجمعها- فلا يقتصر على بيت منها، هو بيت عبدالمطلب الذي نبع فيه الرسول، سعى ﷺ إلى توثيق صلاته بسائر بيوت قريش، وعزز هذه الصلات باختيار بعض زوجاته منها، حتى تقوم رابطة المصاهرة مقام رابطة الدم والقربى، وكلتاهما

وشيجة قوية من وشائج انتماء القائد إلى أمته؛ فكانت الرغبة في خلق هذه الآصرة الاجتماعية هي إحدى أسباب تعدد أزواج النبـي، لقد كان في حاجـة إلى أنصار يؤمنـون بالدعوة من البيوت والقبائل والعشائر جميعها، وليس ثمة وسيلة لتحقيق هـذا المطلب أصلح من تعزيز روابط الانتماء بالجميع، وليس أقوى ولا أبقى من روابط الدم والنسب والمصاهرة في مجتمع قبلي يعتز بالأنساب ويقوى بالأصهار، فكيف إذا كان النسيب أطهر القوم وأجلهم مكانة.

ولقد أشـار إلى هـذا المعنى المرحوم عبـاس العقاد دون أن ينـص صراحة علـى اتصاله بمقوم الانتمـاء إلى الأمة بين مقومات القائد، وذلك في كتابه: «عبقرية محمد» إذ يقول:

«أما سـائر زوجاته ﷺ فما مـن واحدة منهن- رضي الله عنهـن- إلا كان لزواجه بها سـبب من المصلحة العامة أو من المـروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة».

مـن الواضح أن الرغبة في تعزيز الانتماء إلى سـائر بيوت قريش تدخل في باب المصلحة العامة، والدليل على ذلك قول العقاد- رحمه الله- في السياق ذاته:

«ورملة بنت أبي سفيان تركت أباها لتسلم، وتركت وطنها لتهاجـر مع زوجها إلى الحبشـة، ثم تنصَّـر زوجها وفارقها وهي غريبة هناك بغير عائل، فأرسـل النبي إلى النجاشي في

طلبها لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين، فكانت النجدة الإنسانية باعث هذا الزواج، ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء، وكان للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذي لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة إلى التفكير فيه، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بآصرة النسب، عسى أن يهديه ذلك إلى الدين، بما يعطف من قلبه ويرضي من كبريائه».

ومثلما عزز الرسول انتماءه إلى جماعة قريش بالزواج من بعض نسائها، عزز هذه الرابطة أيضًا بتزويج بناته من صاحبين جليلين هما؛ علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان؛ لأن توثيق الصلة بهما هو في الوقت نفسه تنمية للعلاقات الحميدة مع البيوت العربية الأصيلة، وتدعيم الانتماء إلى من يقودهم.

ولقد أكد المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل أن تقوية انتماء الرسول إلى قومه أو زيادة الأواصر على حد تعبيره كانت من مقاصد زواجه ﷺ، بقوله في الفصل الثامن من كتابه «حياة محمد»:

«زاد عناد هذه القبائل محمدًا عزلة، كما زاده إمعان قريش في أذى أصحابه ألمًا وهمًّا، وانقضى زمن الحداد على خديجة؛ ففكر في أن يتزوج، لعله يجد في زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسو به جراحه، على أنه رأى أن يزيد الأواصر

بينه وبين السابقين إلى الإسلام متانة وقربى، وخطب إلى أبي بكر ابنته عائشة».

وبقوله عن سعي الرسول ﷺ لزيادة ارتباط المسلمين به من طريق حسن رعايتهم، وذلك في الحديث عن زواج النبي من حفصة بنت عمر:

«وكذلك كان هؤلاء الأعراب في فزع من محمد، وفي قلق على مصيرهم، بعد تزايد بأس المسلمين إثر الهجرة إلى المدينة.. وقريش لها سيادة العرب، وهي لا يمكن أن تني عن الأخذ بثأرها، وما كان شيء من هذا ليغيب عن محمد وبُعْد نظره وسلامة سياسته؛ فلا بد له إذن من أن يزيد المسلمين به تعلقًا وارتباطًا، ومهما يكن الإسلام قد شد من عزائمهم وجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، فإن حسن رعايتهم تزيد عزائمهم شدة وتضامنهم قوة، ومن حسن رعايتهم أن يزيد محمد رابطته بهم؛ لهذا تزوج من حفصة بنت عمر بن الخطاب، كما تزوج من عائشة من قبل».

ونستبين من هذين النصين أن من أولى مقاصد الرسول من الزواج زيادة الأواصر بينه وبين السابقين في الإسلام متانة وقربى، وحسن رعاية المسلمين حتى يزيدوا به تعلقًا وارتباطًا، وكلا المقصدين يدور في الحقيقة حول معنى واحد وهو تعزيز القائد بانتمائه إلى أمته.

ويستطرد المؤلف في بيان العلاقة بين زواج الرسول وبين

أهداف الدعوة، وما تنبئ عنه هذه العلاقة.

«وكما تزوج من حفصة فزاد ابن الخطاب به تعلقًا زوَّج ابنته فاطمة من ابن عمه عليّ أشد الناس محبة للنبي، وإخلاصًا له منذ طفولته، ولما كانت رقية ابنته قد اختارها الله إلى جواره، فقد زوج عثمان بن عفان بعدها ابنته أم كلثوم، كذلك جمع حوله برابطة المصاهرة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا، وجمع بذلك أربعة من أقوى المسلمين الذين كانوا معه بل أقواهم إن شئت. بهذا كفل للمسلمين مزيدًا من القوة».

فالانتماء إلى الأمة إذن مقوِّم أساسي من مقومات القائد؛ لأن القربى والمصاهرة وما إليها من أسباب التقارب والوحدة تكفل للجماعة مزيدًا من القوة، قوة معنوية لا تقل عن القوة التي يكفلها الانتصار في الحرب وحيازة المغانم، وبغير هذه القوة لن يستطيع القائد أن يشق طريق النجاح في مسيرة تضم كل أعضاء الأمة، ومن ثم فإن الانتماء هو إحدى الدعائم التي تقوم عليها القيادة الحقة.

ومن الأمثلة الدالة على أهمية انتماء القائد إلى أمته زواج الرسول من ميمونة أخت أم الفضل زوج العباس بن عبدالمطلب عم النبي، وخالة خالد بن الوليد، فقد رأت ما رأت من أمر المسلمين في عمرة القضاء؛ فهوت إلى الإسلام نفسُها ؛فخاطب العباس ابن أخيه في أمرها، وعرض عليه

أن يتزوجهـا، وكان مـوكلًا منها بذلك، وقبل الرسـول وكانت ثلاثة الأيـام التي نص عليها عهد الحديبية قد انقضت، ولكنه عليه السلام أراد أن يتخـذ من زواجه ميمونة وسـيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فلما جاءه سـهيل بـن عمرو وحويطب بن عبد العزى مـن قبل قريش يقولون لمحمـد: «إنه قد انقضى أجله فاخرج عنا» قال لهم: «ما عليكم لو تركتموني فأعرسـت بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه»[١٣].

وتتسـع دائرة انتماء القائد الأعظـم إلى الأمة العربية حتى تشـمل يهـود خيبر وسـائر اليهـود، بوصفهم من أهل شـبه الجزيرة الذين بعث الرسـول لهدايتهـم إلى الدين الحق مهما أبـدوا من عداوة، فيتزوج الرسـول من إحدى نسـائهم، وهي صفية بنت حيي بن أخطب النضيرية، وكانت إحدى السـبايا اللاتي أخذ المسـلمون من حصون خيبـر، وقد قيل للنبي في شـأنها: «صفية سـيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك» فأعتقها وتزوجها.

ويعلـق على ذلك الأسـتاذ الدكتور محمد حسـين هيكل- رحمه الله- بقوله: «إن هذا الزواج من تقاليد العظماء الفاتحين الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي يفتحونها

(١٣) رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رقم ٦٧٩٦.

ليخففوا من مصابهم ويحفظـوا من كرامتهم» ونحن نضيف إلــى هذا الغرض غرضًا آخــر لا يقل عنه وضوحًا، وهو توثيق الصلات وتدعيم الانتماء، توحيدًا للصف وتحقيقًا للهدف، غير أن اليهود خانوا عهدهم مع الرسول، وخرجوا بذلك على الأمة فكانوا من أعدائها.

ويطرد اتساع دائرة الانتماء حتى تتجاوز الجزيرة العربية إلــى ما حولها من البلاد، إذ يتــزوج النبي من جارية مصرية، هــي ماريــة القبطية التــي بعثها المقوقس عظيــم القبط في مصر مــع هدايا أخرى إلى الرســول، ردًّا على الرســالة التي بعثها إليه يدعوه فيها إلى الإسلام.

ومــن الواضح أن هذا الزواج يمثل عقد مصاهرة بين النبي وبيــن أهل مصــر، تلك المصاهــرة التي تعد إحدى الوســائل المهمة لتحقيق رابطة الانتماء، ولقد أثبت التاريخ ذلك التأييد المعنوي الــذي أبداه المصريون للمســلمين الفاتحين بقيادة عمــرو بن العاص، والذي كان من عوامل انتصارهم.. ولســنا نعــدو الحقيقة إذا قررنا أن شــعور أهل مصر بذلك النســب لما عــرف عنهم من توقير لرؤســائهم وبالتالــي لأصهارهم، وكان المقوقــس رئيسًــا علــى قومــه وصهــرًا للنبــي بحكم تزوجــه مارية «جارية المقوقس» فضــلًا عن أنها مصرية من صميم شــعبها، فإن هذا الشــعور الناجم عن مصاهرة النبي للمقوقــس وللمصريين عامة أن الشــعب المصري الذي عانى

طويلًا من عبودية الرومان وجد في المسلمين الذين سبقت إليه أنباء الرسالة الإنسانية التي يحملون مشعلها- رسالة الحرية والعدل والرحمة- عونًا لهم على التخلص من جور الرومان الدخلاء، ولم يجدوا فيهم غزاة من الأجانب؛ لأن العرب والمصريين القدماء ينحدرون من جنس واحد، وهم أبناء عمومة على أرجح الأقوال، وقد جدد هذه القربى وبعث مشاعر الانتماء وعمَّقها في نفوسهم رابطة المصاهرة بينهم وبين النبي العربي، فكانوا عونًا على دخول الإسلام وانتشاره في بلادهم.

ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى أن توثيق الانتماء إلى الأمة لم يكن المقصد الوحيد من تعدد زوجات الرسول، وكان المقصد الأساسي في جميع الأحوال، إذ كان اختيار الرسول لزوجاته على حسب حاجتهن إلى الإيواء الشريف، وعلى حسب المصلحة الكبرى التي تقضي باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه على السواء.. بيد أنا إذا تعمَّقنا في دراسة الحالات التي كانت الرحمة والمروءة والنخوة هي الدوافع الأساسية لها؛ وجدنا أن توثيق الانتماء يقف كعامل غير مباشر خلف هذه الحالات، وبخاصة إذا لاحظنا أن هذه الدوافع تحقق انتماءا روحيًّا عميقًا بأفراد أمته سواء الأقربين منهم إلى الأصهار أو البعيدين منهم؛ لأن الحاجة إلى التأليف أو الرعاية

وتبادل العطف والمودة هي حاجة إنسانية أساسية، لا تقتصر على القريب دون البعيد، بل هي مشـاع بين الأسرة الإنسانية جميعها، ولا شـك أن التآلـف والرعاية هي القاعدة التي تقوم عليها رابطة الانتماء إلى المجتمع.

وتتزايد حلقات الدائرة- دائرة الانتماء - حتى تضم الصعيد الإنسـاني كله لتجمع بين القاصي والداني والأبيض والأسـود والغنـي والفقير على قاعدة الإخاء والمسـاواة، وإن لم تتوافر وشـائج انتماء القائد الأعظم المبعوث من عند الله إلى الناس كافـة عن طريق الدم والمصاهرة لاسـتحالة هذا الأمر، فليكن مـد اليد إليهـم حينما يوجدون بالسـلام، ومناشـدة التعاون في سـبيل نصرة المظلوم وإرسـاء القيـم الفاضلة والمبادئ القويمة، بديلا عن هذه الوشـائج، بديـلا معنويًّا لا يقل عنها قوة وأصالة، بديلا لا غنى عنه، ولا يقوم مقامه مثيل في سبيل إنجاز أهداف الرسالة الإسلامية، وهي رسالة عالمية بطبيعتها وأهدافها.

ذلـك هو التفسـير المنطقي للحكمة التي كان يسـتهدفها النبـي من وصاياه إلـى جنده وولاته علـى الأقاليم والأمصار التي فتحوها، وصايا بحسن المعاملة، والتمسك بالمثل العليا فيما يصدر عنهم نحو أبناء هذه البلاد من أقوال وأفعال.

وكان يضـرب لهـم المثل على ذلك بسـلوكه مـع الناس، فهو الكريم السـمح العافي عند المقدرة، مما زاد المسـلمين

به تعلُّقًا، وجعلهم يرون فيه نبي الله ورسـوله الحق، ويرون فيـه إلى جانب ذلك أبًا لهم جميعًـا، وليس أقوى ولا أوثق من هـذه الأبوة الروحيـة في التمكيـن لرابطة انتمـاء القائد إلى أمته فليكن للحكام المسـلمين في رسـول الله أسـوة حسنة، وليذكـروا نصائحـه وتعاليمه، وهم يتعاملـون مع أهل البلاد المفتوحة حتى تضيق مسافات الخلاف بينهم، وتقوم مقامها وشائج الانتماء بالمشاعر الودية، والتجاوب الصادق، والعمل المشترك في سبيل تحقيق أهداف سليمة يلتقي عليها الجميع حكامًا ومحكومين.

ولقد أثمرت هذه التعاليم الرشـيدة في نفوس المسـلمين، وأدرك أولـو الأمر من صحابة الرسـول ما تنطـوي عليه من حكمة سـامية، فسـعوا إلى توثيق رابطة الانتماء بينهم وبين سـائر المسـلمين في الجزيرة العربية، ثم سـعى من شـغل منهـم وظائف القيـادة والحكم إلى خلق هـذه الرابطة بينهم وبين الشـعوب المجاورة التي تحقق لهم النصر على حكامها المسـتبدين المسـتغلين، فدانـت لهم تلـك الشـعوب بالولاء والطاعة واسـتجابوا لمبادئ دعوتهم، وعملوا معهم جنبا إلى جنب لإرساء قواعدها وتدعيم بنيانها.

ولقـد اقتدى القـادة والحكام المسـلمون بنبيهم في خلق أواصـر الانتماء بالجماعـات التي تختلف فيما بينهم سـلالة ولغة وعادات وتقاليد ونظما اجتماعية وسياسـية، وتتفق في

انضوائها جميعـا تحت راية الدين الجديد. فكانت وسـيلتهم لتحقيق هذا المقصد هي الوسيلة نفسها التي اتبعها الرسول، ونعني بها المصاهرة والمعاملة الحسـنة بوصفها أداة لخلق الانتماء الروحي إذا لم تتيسـر السـبل إلـى المصاهرة، وأداة لتعزيز الانتماء عن طريق النسب إذا توافرت هذه الرابطة.

ومن ثم فقد اختلط المسـلمون بأبنـاء البلاد التي دخلوها اختلاطـا يقوم على المودة والتكافل والرحمة والعدل، وتبادل المنافـع المشـتركة، والتعاون في سـبيل المصلحـة العامة، وأدى ذلك كله إلى عقد أواصر المصاهرة بين كثير من الجنود المسلمين وأهل تلك البلاد، مما أنشأ ووثق روابط الانتماء بين الجانبيـن، وأزال من نفوس المحكومين عقدة كراهية الحاكم ومقاومته بشـتى وسـائل المقاومة؛ ذلك لأن العرب الفاتحين أصبحوا إخوة لهم بالمصاهـرة والمعاملة الكريمة، وكان من نتائج هذا كله أن تحققت الوحدة القومية في العالم الإسلامي؛ فأصبـح العرب وأهل الأقاليم التي دخلوها يكوِّنون أمة عربية واحدة، تظلها راية العقيدة الإسلامية، وتقويها وشائج الانتماء بمختلـف صورها، واندثـرت القيم القديمـة والعقائد البالية، وحلت مكانها قيم المجتمع الإسـلامي الجديد، بل لقد اندثرت لغـات كثيرة في هذه البلاد، وحلّت محلها اللغة العربية، وهي لغة القرآن، وأصبح لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى.

ونخلص مما تقدم إلى أن الانتماء إلى أمتهِ ووطنه من أهم

مقومـات القيادة في نبي الإسـلام وصحابتـه، إذ كان عاملًا أساسـيًّا في تحقيق أهداف العقيدة الإسـلامية. فلقد شعرت القاعـدة المحكومة أن القوة منبثقة منها، وليسـت مفروضة عليها، فتجاوبت معها نفسيًّا واجتماعيًّا، وارتفعت معنوياتها، فتسابقت إلى التعاون مع القادة والبذل والتضحية في سبيل التمكين للعقيدة، ورفع ألوية الحضارة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وارتياد آفاق جديدة لم يسبق إليها أحد في تاريخ البشرية.

ومن هذا البحـث التحليلي لخاصية الانتماء إلى الوطن في شـخصية النبي ﷺ نسـتطيع أن ندرك أن هـذا الانتماء كان أحد الدوافع التي حدت بالمسلمين إلى التجاوب معه ومحبته والتضحية بالنفس والمال والجهد في سـبيل نشر دعوته قبل الهجرة وبعدها، وقد لمسـنا في الفصلين السابقين الخاصين بالتخطيـط والتنظيم للهجرة مدى عمق هـذا التجاوب وهذه المحبة، وروعة هـذه التضحية، في نفوس القلة المؤمنة التي عهد رسـول الله بمشـاركته في الرحلة الخالـدة إلى أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن أبي بكر، وأسـماء وعائشـة وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، لقد جمع على حبه الصغار والكبار، النسـاء والرجال، الأحرار والموالي، إذ كانوا يشعرون أنه منهم وأنهم منه، فخاطروا بأرواحهم -وهي أغلى ما يملك المرء- في سبيل معاونته على أداء رسالته، لم يتردد

منهم أحد في هذه المخاطرة أو ينكل في إحدى اللحظات عن استكمال مسيرتها.

والدليل على أن انتماء قائد الأمة الإسلامية إلى قومه كان من أسباب تآلفهم معه، أنهم كانوا- فيما عدا القلة السادرة[١٤] في شركها وعدوانها- يوقرونه ويقدرونه ويطلقون عليه أنبل الصفات في عهد جاهليتهم، واستمروا على هذا التوقير والتقدير بعد الإسلام، برغم عدم دخولهم جميعًا في دين الله إذ كانوا يرون فيه الرجل العربي الأصيل الذي تتوافر فيه أكمل السجايا العربية، فإذا كان الإيمان هو أكبر دافع غيَّر المسلمين إلى محبة محمد ﷺ فإن انتماءه إلى وطنه ومجتمعه كان في رأينا أكبر دافع غيّر المسلمين إلى تبجيله؛ وإلا فكيف نفسر إقدام عبدالله بن أريقط الديلمي وهو من كفار قريش على القيام بمهمة الدليل لمحمد وصاحبه في الطريق من مكة إلى المدينة، برغم إدراكه لما قد يجره عليه ذلك من ويلات عصبة الشرك إذا افتضح أمره، إن تجاوب عبدالله بن أريقط مع النبي وصاحبه وتقديره لهما مردهما في رأينا إلى أصالة الانتماء القومي في شخصية رسول الله وشخصية الصديق بالإضافة إلى مناقبهما الخلقية، ولا يمكن النظر إلى المصلحة الشخصية أو المادية وحدها كدافع سياسي لقيام الرجل بمهمته المحفوفة بالخطر،

(١٤) تائهة. (المجلة).

فإنــه برغم احترافه العمل دليــلا، لم يكن مأجورًا بقدر ما كان متعاونًا، صادرًا في ذلك عن مشــاركته الوجدانية لرســول الله وصاحبه، وإن لم يشاركهما دينهما.

ولســوف نبين في المباحث التالية مــن هذا الفصل صدق هذه النظرية، وهي أثر انتماء النبي إلى قومه العرب في قدرته على قيادتهم إداريًّا وسياســيًّا واجتماعيًّا، وبالتالي إنشاء أول مجتمع منظم ودولة كاملة الأركان في الإسلام، وذلك بالإضافة إلى العوامل القيادية الأخرى التي سنتناولها في مواضعها.

ونود أن نشــير- في مجال المقارنــة بين مدى تأثير هذه العوامل في تحقيق الهدف المشار إليه- أن عامل الانتماء يبرز بصورة واضحة بالنســبة لغير المســلمين من أهــل المدينة؛ فلولا توافره في شخصيته - عليه الصلاة والسلام- لما استمع إليه واســتجاب من لم يكن قد أسلم بعد من الأوس والخزرج، إذ كانوا يشــعرون وحــدة قومية تجمعهم بــه، وبأنه يمثلهم، ويحمــل خصائصهم الوضيئة، فدانوا له بالولاء، وأيقنوا أن ما يدعو إليه حق، بل إن اليهود رغم ما عرف عنهم من سوء طوية وتعصب ونظرة إقليمية ضيقة جعلتهم يعتزلون مجتمعاتهم وينطوون على أنفســهم، كان منهم مــن يأنس إلى النبي مما يرجع إلى قوة انتمائه إلى قومه، وتأثير ذلك عليهم.

ومــن ثم فإنه يمكن القول بأن توافــر خاصية الانتماء إلى المجتمع في شــخصية القائــد الأعظم للأمة الإســلامية، كان

عنصرًا جوهريًّا في بناء شـخصيته، وبفضلها اسـتطاع- كما شـاء الله تعالى- أن يكسـب الرأي العام في المدينة ويقوده، وأن تنجـح مهمته برغـم ما عاناه من أعباء ومسـئوليات وما صادفه من عقبات.

قوة الإيمان أو الحافز الصادق:

من المسلَّم به أن الإيمان بالمبدأ هو الحافز الحقيقي للعمل علـى إنجـاز أعظم الأعمال، ومـن ثم كان أبـرز المناقب التي يتصـف بها أصحاب المبادئ والقيـم الفاضلة؛ لأنه بقدر قوة هذا الإيمان وثباته يكون تأثر الناس بصاحب الدعوة الجديدة، ودخولهم فيها طواعية واختيـارًا لا جبرًا وإذعانًا؛ ذلك أنه قد استقر في الضمير الإنسـاني منذ عرف الإنسان الحضارة أن الحق أقوى من الباطل، وأن الصراع الأزلي بينهما يسفر دائمًا عن انتصار الحق مهما طال المدى وشقت الطريق.

فالفيصـل بيـن المحـق والمبطـل هـو الإصـرار والبـلاء والتضحية، وهي كلها صفات تنعدم في صاحب الدعوة الباطلة؛ لأنه طالب منفعة شخصية سرعان ما يتخلى عنها إذا أدرك أن إصراره عليها سـيصيبه بالضرر، ويورده موارد التهلكة، أما دعـاة الحق والمصلحون فهم أصحاب رسـالة كبرى وغايات أسمى من المطالب المادية الزائلة والمنافع الذاتية الرخيصة، إنهم يحملون تبعات جسـامًا في سـبيل تغيير المجتمع الذي ينتمون إليـه، وهم في تحملهم لمسـئولياتهم تلك تصغر في

أعينهم متع العيـش ومغرياته، وتتضاءل مغانمه ومسـراته، على حين تعظم في عيونهـم وأفئدتهم حقيقة الإيمان بالمثل العليا، وشـد عزائمهم إرادة الإصلاح والبناء، ويسـتتبع ضآلة أطايـب الحياة ومناعمهـا لديهم هوان الآلام التـي يتكبدونها والتضحيات التي يبذلونها في سـبيل اسـتبدال الذي هو خير بالـذي هو أدنـى؛ فنراهـم ينكـرون ذواتهـم، ويتفانون في أعمالهم المجيـدة، يحثهم الإيمان الصادق العميق، ويحفزهم الهـدف البعيد إلى مزيد مـن الجهاد، فلا سـبيل لقوة عليهم مهمـا علـت إلا قوة الحـق، ولا مرد لهم عـن مواصلة الطريق إلا أن يشـاء الله، فالإرادة القوية والصلابة هي سمات الإيمان الحق، ومن ثم سلاح النصر.

ولَكَمْ سـجل تاريخ البشـرية أعظم الصفحات وأخلدها في سـير القادة والأبطال، كيف حملوا المشعل وتقدموا الصفوف حين لم تكن تومض شـعاعة مـن أمل أو تبدو بارقة من يقين، كيف واجهوا المشـكلات المعقدة، واسـتهانوا بما يصيبهم من بأسـاء في سـبيل الخروج من هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، وكيف حققوا انتصارهم في أشق الظروف وتحت أشد الضغوط المادية والمعنوية، وما وهنوا أو استكانوا، وإنما زادهم إيمانهم صلابةً وجلدًا، وارتفعوا إلى مستوى المسئوليات التي قبلوا احتمالها في رضا عميق ويقين لا يتزعزع، مثلهم في ذلك كالجوهر الأصيل لا يغيره اللهب، بل يزيده صقلًا ولمعانًا.

وحين نطالــع الصفحــات الوضيئة التي ســجلها التاريخ للرواد والعظماء الخالدين تبهرنا ســيرة الرســول الأعظم بما حوت مــن مكارم الأخــلاق وجلائــل الأعمال، وتجلَّــى لنا من خــلال هذه الأخلاق والأعمــال قوة الإيمان التــي وُهِبها محمد فــي أكمل صورهــا ومعانيها؛ لقــد بُعث ﷺ بأعظم رســالة للبشــرية فأفــاض الله عليــه إيمانًــا يتكافأ مــع عظمة هذه الرســالة وســموِّها، وســرى هذا الإيمان القوي من نفسه إلى نفــوس أصحابه، فملأها ثباتًا وعزمًــا وإصرارًا على المقاومة حتى النصر، ورغبة في التضحية والفداء.

وبفضل هــذه القوة الروحية اســتطاع المســلمون بقيادة النبي ثم أبي بكر وسائر الخلفاء الراشدين من بعده أن يقهروا أقوى دولتيــن معاديتين في ذلك الحيــن، وهما دولتا الفرس والروم، برغم رجحانهما، في ميزان القوة العسكرية، إذ كانت جيوشــهما أضعاف جيش المســلمين، كما كانــت أكثر تقدمًا فــي الأدوات والمعــدات الحربية، وقد انهــارت بانهيار هاتين الدولتيــن كل معالم العبودية واســتغلال الإنســان للإنســان، وســقطت ســلطة الطغاة والمســتبدين لترتفع أعلام الإسلام رفرافة بالحق والخير والعدالة والتعاون بين الناس جميعًا.

ولا شك أن العامل الأســاس الذي أدى إلى تلك الانتصارات هــو التحول العظيم الذي قاده المســلمون، منذ اســتقرارهم

في دار الهجرة للقضاء على الظلم والتفرقة واستنزاف دماء المستضعفين في الأرض، ولبناء مجتمع متماسك يقوم على التوحيد والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن هذا التحول ليتم بهذه السرعة الفريدة في تاريخ البشرية بغير ركيزة روحية صلبة لا تعادلها قوة الأسلحة المادية، مهما تزايد عددها وتفوق نوعها.

تلك الركيزة التي تعنيها هي الإيمان القوي بالقيم التي أرساها الإسلام، وهي الحافز النوري كما نعبر عن ذلك في المصطلح الحديث، وهي السلاح القوي الذي يضمن النصر لمن يحوزه مهما قل عدده أو عتاده، سلاح يفل سلاح التفوق العددي والتفوق في الإمكانيات والموارد، سلاح روحي لا تعادله قوة الأسلحة المادية مهما بلغت كفاءتها وكفايتها.

لقد جاء الإسلام ليحرر الإنسان من البغي والطغيان، ولقد كانت وسيلته لتحقيق هذا الهدف هي الإنسان نفسه، فكانت تعاليمه جميعًا ترمي إلى استعادة كرامة الإنسان وحريته وحقه في العيش الآمن الشريف من طريق تبصير فكره ووجدانه ـ وهما أثمن قوى النفس البشرية ـ بهذه المعاني، وتأصيل تلك المثل في أعماقه حتى يدفع عن حقه بنفسه، ويجاهد في سبيل وطنه وعقيدته جهادًا قد يصل به

إلى الاستشـــهاد، ذلك أن الاستشهاد في سبيل الله قضية حق وشـــرف وعدالة أكرم عند المؤمن القوي من الاستســـلام، وما يعقبه مـــن حياة ذليلة؛ لأن المعيار الحقيقي لتقييم الإنســـان هو القوة الروحية التي تميزه عن غيره من الكائنات، وعناصر هـــذه القـــوة هي الكرامـــة والقدرة علـــى مواجهـــة التحديات، والصمود في المحن، والانطلاق إلى آفاق جديدة تزيد الإنسان عراقة في إنسانيته.

وطالمـــا أن الموت حق لا بد منه ؛ فإن الحياة في عزة أكرم عنـــد المؤمن الحق من العيش في هوان، بل إن العيش الخانع هـــو العدم بعينه، ومن هنا أطلق المشـــرعون اصطلاح الموت المدني على حالـــة الفرد الذي يفقد حريات المواطن وحقوقه فـــي المجتمـــع؛ فالحياة بغير هـــذه الحريـــات والحقوق تفقد جوهرها وتصبح شبهية بحياة الأنعام والسوائم.

وقيمـــة العمـــل المنطلـــق من الإيمـــان الذي يصـــل إلى حد التضحيـــة هي أغلـــى القيم الروحيـــة التي يدين بهـــا المؤمن القـــوي، والتضحية بالنفس لا تعني انتهـــاء الحياة إنما تعني اتصالها؛ لأن الفرد بعد موته يحيا فيما يخلفه من عمل صالح، وبقاء الأمة التي ينتمي إليها هو امتداد لحياته...

فقيمة الإيمان هي أساس القيم جميعًا؛ قيمة الحرية وقيمة العدل وقيمة العمل وقيمة التضحية، وغيرها من القيم الرفيعة،

وهي تقوم على انتزاع الأثرة والأنانية من نفس المسلم، وانتزاع الخوف من الموت والحرص على مناعم الحياة، وما يؤدي إليه ذلك من ذلةٍ ومن جَورٍ واستغلالٍ.

والإيمان الصادق هو الذي يحرك الطاقات البشرية الكامنة فيحولها إلى قوة لا تضارعها قوة أخرى، وهو الذي يربط أفراد الأمة برباط وثيق، ويذيب الفردية في نفوسهم، ويطلق قوى التضامن والإيثار، ليصبحوا جميعًا كأنهم رجل واحد؛ فيندفع كل منهم مستعدًّا لتقديم أية تضحية في سبيل تحقيق الهدف المشترك.

وتأسيسًا على ذلك، فقد عمل رسول الله على تعميق الإيمان في نفوس المسلمين بالمدينة بوصفه السبيل إلى تعبئتهم في المعركة المرتقبة بينهم وبين المشركين، وإلى مضاعفة الجهود المبذولة أضعافًا مضاعفة، وجعل الرجل المؤمن يعدل عشرة رجال بل عشرات من المشركين بفضل سلاح الإيمان، وهذا هو التفسير العلمي لقول الله تعالى:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟

أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٥، ٦٦)

هذا هو سلاح التفوق على قريش: بناء صرح شامخ من الإيمان القوي، الإيمان بالله ورسوله، واعتناق المبادئ والقيم التي يبشر بها الإسلام، إن هذه القوة متى توافرت كان لها الفاعلية في النصر على العدو في الحرب وفي السلم معًا، أما في الحرب فهي تقهره وتقضي على مصادر قوته من طريق مجابهته بالقوة، وأما في السلم فهي تقهره أيضًا من طريق العمل الدائب في بناء الدولة الإسلامية وفي نشر الدين الحق.

وفي ضوء هذه المعاني يتبين أن الإسلام في عصره الأول، كان بالمصطلح الحديث ثورة متصلة، ثورة استمرت جذوتها مشتعلة تنير للبشرية قرونًا طوالًا، فما وهنت عزائم المسلمين الأوائل، بل كان كل منهم قائدًا في جماعته، يعمل على توعية أفرادها بالأهداف التي توخاها الإسلام، والطريق إلى تنفيذ هذه الأهداف، ولم يكن هذا الطريق سوى الإيمان بالرسالة والالتزام بمسئولياتها والتضحية في سبيل تحقيقها، كان هذا الإيمان هو الحافز الذي دفع أفرادًا قلائل من قريش بقيادة محمد أن يعملوا بكل ما أوتوا من قدرات بطولية لنشر دعوتهم

وتثبيتها في نفوس الناس جميعًا.

كان هـذا الحافـز عضوًا مشـتركًا في كل انتصـار أحرزه الإسـلام وكل تقدم حققه، ذلك أن مرحلة إرساء دعائم الدعوة وبناء الدولة الإسـلامية الأولى فـي دار المهجر كانت مُحاطة بأعتـى القوة العدوانية، ولكـن قوة الإيمـان والتعبئة الدائمة من أجل انتصار العقيدة كانت الدرع الواقي لانتشـار الإسلام، والسـلاح التي تكسـرت على نصله كل محاولات المشـركين والمنافقين في سبيل زعزعة أركان الدين الحق.

والإيمـان في الإسـلام ـ كما يقول الإمـام محمد عبده ـ أن يعقل المرء دينه ويعرفه بنفسه حتى يقتنع به، فليس القصد مـن الإيمان أن يذلل الإنسـان للخيـر كما يذلـل الحيوان، بل القصـد منـه أن يرتقي عقله وترتقي نفسـه بالعلـم، فيعمل الخيـر؛ لأنه يفقه أن الخير النافع المرضي لله، ويترك الشـر؛ لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته.

إنه إيمان المرء المسـتنير المسـتيقن الذي نظر ونظر، ثم واصل النظـر والتفكير إلى اليقين بالله، وهو شـعور روحي يحس به الإنسان يملأ نفسه، ويفرق القرآن بين الإسلام وبين الإيمان بقوله:

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ (الحجرات: ١٤)

ولقد كان الرسـول الكريم هو المثل الأعلى للإنسـان الذي يربـط بينه وبيـن الكون إيمان صحيح صـادق بالله يضحي في سـبيله بكل طيبات الحياة وشواغلها ومغرياتها، ويحتمل من أجله كل صنوف العذاب وألوان المحن وسـوء الاضطهاد، ويقف في وجه الظالمين من قريش ملقيًا في أسماعهم بكلمة الحق والإيمـان عالية لا يخفضها وعـد، قوية لا يضعف منها وعيد، ولو كان التهديد بالموت.

وإيمان الرسـول هو الذي جعله يعطي عطاء من لا يخشى فاقـة، ويبر اليتيـم وابن السـبيل، وكل بائـس وكل محروم، ويسمو إلى ذروة ما دعا إليه كتاب الله من فضائل.

ولقـد بهرت المؤرخين الأوروبيين قـوة الإيمان التي كانت تغمر قلب النبي، فعقد «توماس كارليل» في كتابه المشـهور عن البطولة فصلًا ضافيًا عن بطولة محمد ﷺ، ويعبر الدكتور ماركس دودزفي كتابه «محمد وبوذا والمسيح» عن قوة إيمان الرسول بقوله:

«إنـه على اليقيـن لَصاحب فضيلتين مـن فضائل الأنبياء، فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسـه نزعة لا تقاوم لنشـر تلك الحقيقة، وإنه لخليق في هـذه الفضيلة أن يسـامي أوفر الأنبياء شـجاعة وبطولة بين بنـي إسـرائيل؛ لأنه جـازف بحياته في سـبيل الحق، وصبر

على الإيذاء يومًا بعد يوم عدة سنين، وقابل النفي والحرمان والضغينة وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذي نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بثِّ رسالته، غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء، وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان، إلا أن أحدًا آخر غير محمد لم يقم في العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم متين، وما أتيح له ذلك إلا لنبي عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان، فإذا سأل سائل: ما الذي دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضي الموحدون بعبادة العزلة؟ فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة في إيمانه بصدق ما دعا إليه».

ويعلق كاتب الإسلام الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد على شهادة هذا العالم الأوروبي بقوله: «إن الحقيقة التي يراها المنصف، مسلمًا كان أو غير مسلم، هي أن فتوح محمد فتوحُ إيمان، وأن قوة محمد قوة إيمان، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل.

لقد جاء الإغراء الذي أشار إليه هذا العالم وهو داع مهدد في سرِّية، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته فما حفل بالإغراء وهو بعيد عن مقصده، ولا حفل به وهو واصل إليه.

جاءه سـيد قومه عتبة بن ربيعة، وهو في مبدأ عمره فقال له واعـدًا ملاطفًا بعـد أن أعياهم تخويفـه متوعدين: «يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من خيارنا حسـبًا ونسـبًا، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعِبت آلهتهم ودينهم، وكفّرت من مضى من آبائهم، فاسـمع مني أعـرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلـك تقبل منا بعضها» فقـال عليه السلام : «قـل يا أبا الوليـد»، فقال يا ابن أخـي! إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شـرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملّكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئيًا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه».

فمـا زاد عليه السلام على أن أجابـه بآيات من القـرآن الكريم ثم تركه يعود كما أتى.

وهكـذا تعددت صور الإغراء، كما تنوعت سـبل الإيذاء فقد كان أهـل مكة قسـاة الأكباد غلاظ القلوب، فلم يكد الرسـول يؤمر أن يصدع بدعوته وأن ينذر عشيرته الأقربين حتى كانوا أشـد أعدائه لججًا في الخصومة وإصـرارًا على الباطل، فهذا عمه أبو لهب يقود معركة العدوان على الرسـول، ويسـتعدي عليـه القوم ويهـزأ به، وينتقل الرسـول إلى دعـوة أهل مكة

جميعًا إلى الإيمان، فيتصدى له أبو لهب وأبو سفيان وأشراف قريش، يحقرون من شـأنه ويكذبونه، ويغرون شعراءهم به، ويتحدَّوْنَه أن ينزل المعجزات.

ولـم يكن ليفت فـي عضده ﷺ ما يصنـع الظالمون، فكان يتصدى لهم بالتحذير مما سوف يلقون من عذاب شديد، وينعى عليهم ضلالهم، ويدعو شعراء المسلمين إلى الرد على شعرائهم، ولا يسكت عن الطعن على أصنامهم والسخرية بها والتحقير من شأنها، ويمضي مشتدًّا في دعوته، ويزداد لها أنصارًا.

وتأتمر قريش به، فيطالبون عمه أبا طالب أن يكفه عنهم أو يخلي بينهـم وبينه، وحين يردهم أبو طالب لا يملكهم اليأس بل يعودون إليه مرة بعد مرة، فيبعث إلى الرسول فيقص عليه رسالة قريش ثم يقول له: «فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق». فماذا يقول الرسول والمسلمون ما زالوا حوله قلـة ضعافًا لا قبل لهم بحرب قريـش، وعمه أبو طالب كأنمـا لم يقـوَ على مجابهة قومه، فليـس بملك محمد إذن إلا قوة الإيمان الذي يدعو إليه. وتغمره روح التضحية والفداء في سـبيل الحق، فالآخرة خير له من الأولى، وللموت على الإيمان خيـر من خذلانه أو التردد فيه، ومن ثـم، يلتفت إلى عمه أبي طالـب قائلًا لـه: «يا عم، والله لو وضعوا الشـمس في يميني والقمر في يسـاري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله

أو أهلك فيه - ما تركته»[١٥].

إنها الإرادة السامية القوية، لا تؤثر فيها رغبة ولا رهبة؛ لأنها تصدر من جلال الإيمان وعظمة الحق، إنها قوة قدسية لا تغلب.

وتزداد قريش غلوًّا في العداء وتماديًا في البغضاء، يذكي نيران حقدها خشيتها على انهيار نظامها وضياع نفوذها ومصلحتها، فلا يتركون سبيلًا إلا طرقوه للحيلولة دون انتشار دعوة محمد، وتنتقم كل قبيلة ممن فيها من المسلمين، تعذبهم وتفتنهم عن دينهم، إن كلمة بلال الخالدة وهو يعذب تحت الشمس المحرقة «أحد أحد» ستظل في تاريخ البطولة هديًا للمؤمنين المكافحين، ونبراسًا ينير لهم الطريق ويقوي في نفوسهم إرادة الصبر.

ولم يقف إيذاء قريش عند حد، فقد تطاولوا حتى وجهوا من المساءات ألوانًا إلى محمد، فما زاد محمد والذين آمنوا بدعوته إلا استمساكًا بدينهم وتضحية في سبيل إيمانهم، بل حاول رجل قتله عند الكعبة، وكان منزله يرجم، وكان أهله وأتباعه يهددون فلا يزدادون إلا قوة وصلابة، ولا يزيد الرسول ذلك إلا إيمانًا في الدعوة؛ فقد هان عليه الصبر على البلاء واحتمال المهانات في سبيل إنقاذ الكرامة الإنسانية،

(١٥) دلائل النبوة للبيهقي محققًا، المقدمة.

واحتمـل الأذى والعـدوان كي يفتـح طريقًا للمحبـة والخير والسـلام، وعانى الهجو واللغو في القول كي يحرر البشـرية من المذلة والانقسام.

ويرى محمدٌ أن قريشًا قد أكلها الحقد، وأنها تحسب حربها له معركة حياة أو موت، ولن تسكت عن التدبير للتخلص منه وصد الناس عن سـبيل الله. ومحمد صاحب رسالة، فهو يريد لها الانتشـار، فليهاجر بعض المسـلمين إلى الحبشة، وليكن بعـد ذلك الحـدث الأكبر في الإسـلام حين يهاجـر النبي إلى المدينة، وتكون هجرته نقطة تحول في دعوته ومركز انطلاق لعقيدته إلى العالم كله.

وتنطـوي الهجرة علـى أعظم صفحة سـجلها التاريخ في التضحية دفاعًا عن المبدأ، تضحية بالوطن والأهل بعد نضال طويـل مرير لا يتصـوره عقل، فقد هاجر النبـي على غير ما يحـب منجاة برسـالته وبحثًا لها عـن أرض صالحة جديدة، فكأنمـا لم يكف قريشًـا كل ما صبته من ويـلات على محمد وأتباعه فأرادت أن تجرعه مرارة النفي عن الديار. لقد جربت سلاح الإغراء، وسلاح التهديد، بل حاصرت المسلمين مشهرة في وجوههم سـلاح التجويع، وجربت سلاح الدعاية السوداء، ولـم يشـف كل ذلك صدرهـا، فقد كانـت - لا - ترضى دون القضاء على الدعوة بديلًا.

وكان السلاح المضاد الذي استعان به الرسول في مواجهة تلك المحن هو سلاح العزيمة الماضي، سلاح الإيمان القوي، فلا خوف ولا ضعف ولا تردد، بل إقدام وإصرار على الدعوة، إنه يدعو الناس بالحسنى إلى الدخول في دين الله وهو يعلن رسالته في أسواق مكة حيث الجموع الغفيرة لا يخشى أحدًا، بل هو يعلنها في الكعبة التي اتخذها أهل مكة معقلًا خالصًا لهم، فلا يرده ذلك عن الجهر بالحق ويسير قدمًا في دعوته حتى يأذن الله بالهجرة إلى يثرب.

ولا تنتهي مخاوف قريش بهجرة محمد بل تزيدها قلقًا وذعرًا، فها هو ذا قد أصبح طليقًا في المدينة معتزًّا بأهلها بعيدًا عن مكة، وها هي السبل ممهدة أمامه لمواصلة رسالته، فتدخل قريش معه في أكثر من حرب، ولا يهدأ الرسول من إحدى هذه الحروب حتى يضطر إلى خوض أخرى كفالة لحرية العقيدة وذودًا عن الإسلام والمسلمين.

ويضرب المهاجرون والأنصار في المدينة بقيادة الرسول أعظم المثل في الكفاح والجهاد في سبيل الله، ويسجلون أعمالًا معجزة صادرة عن قوة إيمانهم، ويشقون طريقهم صامدين صاعدين منتصرين على هجمات المشركين ومؤامرات يهود المدينة، فيزيدون عددًا ويزيد إيمانهم قوة على قوة.

ويصور المرحوم الأستاذ محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» قوة إيمان الرسول والمسلمين، محللًا تلك القوة المعنوية التي تقهر جميع القوى المادية، بقوله:

«وسرت من نفسه القوية، أمدها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته قوة ضاعفت عزمهم وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين، بل يعدل عشرة رجال، ويسير عليك أن تقدر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها، فدافع الوطنية يزيدها، وهذا الجندي الذي يقف مدافعًا عن وطنه المهدد بالخطر ممتلئ النفس بالعاطفة الوطنية فتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به؛ ولهذا تغرس الأمم في نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حب الوطن والاستهانة بالتضحية في سبيله.

والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعاني الإنسانية السامية يزيد القوة المعنوية في النفس بما يضاعف القوة المادية منها. وما الوطنية وما قضية السلام التي قامت بعض الحروب الحديثة في سبيلها إلى جانب الوقوف في جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه، والذين يصدون عن سبيله، والذين ينزلون بالإنسان إلى درك الوثنية والإشراك،

إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما في الوطن من قوة، ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوة بمقدار ما في الإنسان من قوة، فما أكثر ما يزيدها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة. إنه ليجعلها قديرة أن تسير البلاد، وتحرك العوالم، وتهيمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر إيمانًا، وهذا السلطان المعنوي يزيد في قوتها المادية أضعافًا مضاعفة».

ذلك هو الحافز النفسي الذي كان العامل الأول في بناء مجتمع دار الهجرة بقيادة رسول الله والرجال الذين آمنوا به وضحوا وهاجروا معه، إنه الإيمان القوي برسالة الحق، وهو أمضى سلاح في قهر الباطل، وأكبر مقومات القيادة الرشيدة، وكان هذا الإيمان يصل إلى الذروة في التعبير والإفصاح عنه باللغة المناسبة وهي البذل والتضحية كلما تعرضت دار الإسلام، دار الهجرة لخطر أو تهددها عدوان... إيمان بالله خالق الكون، وحب لرسول الله قائد المسلمين، وحب للوطن والمواطنين، ودفاع عن شريعة الحق.. وفداء في سبيل الموطن، وذود عن النفس.

وهكذا استنفرت المخاطر التي هددت مجتمع المدينة بعد الهجرة روح الكفاح في نفوس المسلمين، فزاد التفافهم حول نبيهم، وتفانيهم في الذياد عن حياضهم، وظلت قوة الإيمان

علــى أشــدها في قلــب كل مهاجر أو نصيــر؛ لأن الخطر ظل متربصًا بالليل والنهار، ولعل هذا الإحساس المشترك بالخطر كان لــه أكبر الأثــر في انتصــار القومية العربيــة التي كانت نشأتها إحدى نتائج دخول العرب في الإسلام على أرجح الآراء وأصحهــا، انتصار هذه القومية علــى أعدائها الكثيرين، فلقد اســتمر هذا الإحساس وتعمق في نفوس المسلمين مما يرجع إلى اســتمراره زمنًا طويلًا، بدأ منذ عهد رسول الله بالمدينة، واستمر طوال عهد خلفائه الراشدين.

بــل إننا لنذهــب إلى حد القــول بأن الوحــدة العربية التي تحققــت في بعض المراحل، والتي تبدو وتباشــيرها الآن في لهب الصراع بين الأمة العربية الإســلامية وأعدائها إنما ترجع في جذورها إلــى أيام الكفاح المجيدة في دار الهجرة؛ إذ زاد إيمــان المســلمين بدينهم فــزاد بالتالي ولاؤهــم للوطن الذي احتضن هذا الدين باحتضانه محمدًا ﷺ وشعروا بالتضامن الأخوي كما ســنبين في المبحــث التالي، وفاق هذا الشــعور بالتضامن والإخاء المشــاعر الأخرى، وبدا هذا الشــعور أكثر وضوحًا كلما لاح تهديدٌ من أعداء الإسلام في الجزيرة العربية، فــكان على أهبة الاســتعداد دائمًا لصد الخطــر بكل ما ملكت أيديهم بل بأرواحهم.

وإذا كان المســلمون قد تفرقوا شــيعًا بعــد انقضاء عصر

الخلفاء الراشدين، وزادت فرقتهم في العصر العباسي الثاني مما أطمع فيهم أعداءهم فعدوا على أطراف إمبراطوريتهم الشاسعة.. فإنهم سرعان ما كانوا يعودون إلى ماضيهم ووحدتهم كلما تفاقم الخطر واشتد الكرب مما يدل على أن الشعور بقوة الانتماء إلى الإسلام وإلى العروبة لم يفارقهم أبدًا، وإنما ظل كامنًا حتى إذا ظهر الخطر خرج من مكمنه يواجهه ويتحداه، فهو يكمن في الأوقات العادية، ويبرز في الأوقات العصيبة في صورة استعداد كل فرد لوضع الأمة والواجب القومي فوق جميع الاعتبارات المصلحية الأخرى التي قد تخص مجموعات معينة في المجتمع، أي الاعتقاد والإيمان بأن المصلحة القومية فوق كل المصالح الفردية والجماعية الأخرى.

وهذا الشعور القومي في أوقات الخطر لدى أبناء الأمة الإسلامية العربية يمثل نموذجًا رائعًا بين الأمم والشعوب، فقد اطرد بوضوح في جميع المراحل التاريخية التي اجتازها الإسلام والعروبة.. والمثال لذلك ظهوره في مواجهة خطر الغزاة الصليبيين والمغول والتتار في العصور الوسطى، والغزاة الفرنسيين والإنجليز لمصر والشام في القرنين الثامن والتاسع عشر، والعدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ وعدوان ٥ يونيو سنة ١٩٦٧م.

إن الكفاح المشــترك الذي خاضتــه الأمة العربية بقيادة الجمهورية العربية المتحدة في مواجهة مؤامرات الاستعمار وعدوانه إنما هو امتداد لمراحل كفاحها القديم، هذا الكفاح الذي تعلمه المســلمون من قائدهم الأعظم، فســرت روحه فيهم جيلًا بعد جيل، وكان منطلقهم إلى النصر على العدو في كل حرب، كما انتصر المهاجرون والأنصار على قريش وحلفائهــا، كمــا كان منطلقهــم إلى دعم الوحــدة الروحية وتحقيق الوحدة السياســية وتلــك - عندنا من أهم الدروس المســتخلصة من الهجرة ومن تنظيم مجتمع المسلمين في يثرب.

القدوة في الالتزام بالدعوة:

إن قائد الأمة - إذ يتصدى لممارسة دوره في توعية أفرادها وتدريبهم على السلوك السوي - لن يستطيع أن يبلغ غايته ما لم يكن قدوة لهم في هذا الســلوك؛ فمطابقة الفعل للقول هو الأســلوب الكفيل بنجاح القيادة في مهمتها؛ لأن الجماهير قد تتأثر بما يلقيه القائد من تعاليم، وتســتحوذ على مشــاعرها بلاغته وحماســته، ولكنها ســرعان ما تتخذ هــذه - التعاليم وتلك الموهبة الخطابية مادة للســخرية إذا تبينت أن ما ألقي إليها لا يعدو أقوالًا لم تُتْبع بأفعال.

إن الجماهيــر بطبيعتهــا لا تؤمن إلا بالواقــع المتمثل في

المواقــف العمليــة، أمــا الألفاظ المنمقــة البليغــة والعبارات الطنانــة، فــإن تأثيرهــا وقتي لا يتجــاوز الأذن إلــى القلوب والأذهــان، والخطيب الذي لا يؤيد دعوته بأعمال إيجابية عنه، مثلــه لــدى الجماهير كمثل المهــرج أو الممثــل الهزلي الذي يرفه عنها بغرائب الحركات وترديد الألفاظ المســلية واللعب بالكلمات.

ذلــك أن مناط الإيمــان بما يقولــه القائد هــو التحقق من أنــه هو نفســه مؤمن به، ولا دليل على هــذا الإيمان إلا العمل، فالعمــل هو التفســير الحقيقي للإيمان، وبغيــره يصبح أمرًا موجودًا ولفظًا خاليًا من المعنى، فحين يدعو القائد شعبه إلى التضحية والإيثار ـ وما أشــقهما على النفس البشرية الباحثة بطبيعتهــا عــن مصلحتهــا الخاصــة ـ يضع نفســه ودعوته موضع الاختبار أمام الناس، فإذا طابق ســلوكه قوله صدقوه وآمنوا برســالته والتفوا مــن حوله، واقتنعــوا بمبادئه وعملوا على تحقيقها، أما إذا تناقض قوله مع فعله فإن له أسماعهم، ولا ســبيل له إلــى ضميرهم ووجدانهم، بــل إن هذا التناقض قد يؤدي إلى استنكارهم له وتمردهم عليه وتصديقهم مزاعم أعدائه وانضوائهم إلى صفوفهم، ولسان حالهم يقول:

يــا أيهــا الرجــل المعلــم غيــره

هــلا لنفســك كان ذا التعليــم

ابـدأ بنفسـك فانهـا مـن غَيِّهـا

فـإذا انتهـت عنـه فأنـت حكيـم

وقديمًا وصم العرب القوّال غير الفعال بقولهم: «شنشـنة نعرفها من أخزم»[١٦] ورددوا قول القائل:

وغيـر تقـي يأمـر النـاس بالتقـى

طبيـب يـداوي والطبيـب مريـض

وقالوا مع أبي العتاهية:

وصفـت التقى حتى كأنـك ذو تقى

وريـح الخطايـا من ثيابك تسـطع

فالقائـد الحـق هـو الذي يبـدأ بنفسـه، فيعلمهـا الصبر والشجاعة قبل أن يعلم غيره، ويدربها على السلوك الأمثل قبل أن يدرب الآخرين، وهو الذي يضرب المثل للناس في التضحية والفداء ويسـبقهم إلـى الجهاد، حتى يؤمنوا بعظمة رسـالته وقوة إيمانه وسموّ نفسه، وأنه ينشد مصلحتهم العامة، وليس لـه مأرب ذاتي من دعوتهم إلى اعتنـاق مثله وقيمه، فهو أول المدافعين عنها والمضحين في سبيلها.

إن القائد هو الذي يقوم بواجباته سواء فيما يتصل بسلوكه العـام أو الشـخصي من أجل تعبئة الشـعب كلـه في معركة تثبيـت المفاهيـم الجديدة والدفـع إلى الأمـام، والتحذير من

---

(١٦) الأخزم: الحية الذكر، وعلم من أعلامهم، وهذا مثل: يضرب لمن أشبه أباه في خلقه السيئ. المعجم الوسيط ٢٣٢/١. (المجلة)

الانحرافات ومن الطبعي أن تكون عين الأمة دائمًا على رائدها وموجههـا باعتباره ملهمًا ومعلمًا، وهـي تمنحه ثقتها طالما كان أهـلًا لهذه الثقة، ولا تتأتى هـذه الأهلية إلا بتقديم المثل الأعلى في السـلوك، وحينئذٍ يصبح القائد أجدر بالاتباع ممن يقودهـم وأحق بالاهتداء والاقتداء به، إيمانًا منها بأن التعاليم التي يبشـر بها والقيم التي يبثهـا، نابعة من ضميره صادرة من رغبته المسبقة في خدمتهم وإسعادهم.

ومـن ثم فإنه حين يدعو إلى احتمال مشـقة من المشـاق أو الصمود لمحنة من المحن، يبدأ بنفسـه في ممارسة الجَلَد وقوة التحمل، فيهون الأمر على أصحابه ويقبلون على الاقتداء بـه، إعلانًا منهم أنهم أهل بدورهم لثقته، كما أنه أهل لثقتهم؛ فهو أحق بالإقناع، والإنسـان بطبعه يكبر القائد العظيم حين يراه في مقدمة الصفوف عملًا وجهادًا، فيؤمن بصحة مبادئه ويتفاعل معه، في صدق وعزم واحترام.

ويركز القائد دائمًا على الأعضاء المستنيرين في الأمة لكي يكونوا قدوة حسـنة لغيرهم، وتنجـح دعوته هذه إذا قدم هو من نفسـه الدليل فاقترن فعله بقوله، فاحتذاه هؤلاء الأعضاء، وسرى ذلك التيار الإيجابي إلى سائر الصفوف.

ومن الطبعي أن يحفل تاريخ العقيدة الإسـلامية بما يؤكد هذه الأفكار ويقيم الدليل على صحتها.

فالسلوك في الإسلام هو جوهر الإيمان، والقول لغو لا يعتد به، ما لم يقرن بعمل، ومن هنا قرر الإسلام أن كل عمل عبادة، وأضفى على كل عمل صفة تعبدية، بل إن القرآن الكريم كلما ذكر الإيمان قرنه بأداء العمل الصالح، فجعل دأب المسلم على إنجاز العمل وإجادته وتوجيهه إلى الخير العام شرطًا لاكتمال إيمان المسلم، أما الإيمان وحده بغير أن يقترن بعمل صالح يهتدي بضوء هذا الإيمان فليس إلا موقفًا سلبيًّا لا فضل فيه.

ولقد أكد القرآن قيمة القدوة في كثير من الآيات، وجعل مطابقة القول للفعل واجبًا على المؤمن، ونهى عن الشقشقة[١٧] بالكلام دون العمل به، فإن ذلك يدخل في باب النفاق، وليس أبلغ تصويرًا للقوّالين غير الفعالين من قوله تعالى عن اليهود في بلاد العرب وكانوا يفتخرون بأن لهم كتابًا من عند الله هو التوراة، وأن العرب لا كتاب لهم، ولكنهم إذ يفتخرون بالتوراة، لم يكونوا يعملون بما فيها من أحكام الله أو يسترشدون بهديها في الحياة:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ

(١٧) شقشقة اللسان: كلام لا طائل تحته. (المجلة).

لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة: ٥-٧)

فما فائدة التوراة لليهود وهم لا يعملون بها؟ إنهم أشبه بالحمار الذي يحمل كتبًا قيمة على ظهره، فهل يحق له أن يفتخر بها؟ ثم يقول الله لليهود: إن كنتم أحباب الله حقًّا ـ كما تزعمون ـ فهل يسعدكم أن تموتوا الآن، لتذهبوا إلى الله الذي تزعمون أنه يحبكم؟ ثم يخبرنا الله أنهم جبناء يفرون من الموت، ودلالة هذا أنهم قوم أدعياء منافقون. ولما كان اقتران الفعل بالقول من سمات المؤمن الحق، فإن الله يأمر المؤمنين بذلك، وينهاهم عن مخالفته، ويعدها إثمًا كبيرًا فيقول تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة: ٤٤).

وكان ﷺ يوصي بمطابقة العمل للقول، وموافقة فعل الناصح لنصحه، وقد وضع أسس ذلك في سيرته بين أصحابه، إذ كان يقول لهم دائمًا: اعملوا كما تروني أعمل، وكان ينذر الذين تخالف أفعالهم أقوالهم بسوء العاقبة، ويوعدهم بعذاب الله لهم في الآخرة، فقد روى مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يُؤْتِى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ـ أي تخـرج أمعاؤه عن مكانها ـ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، ما لك؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ - كل ما أمر الشـارع باتباعه ورغَّب فيه ـ وَتَنْهَـى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! ـ كل ما نهى الشـارع عنه وحذر منه ـ فَيَقُـول: بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْـرُوفِ وَلَا آتِيهِ ـ أي لا أفعله ـ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ ـ أي أفعله»[١٨] ويقول الرسـول في عالمٍ انفصل سـلوكه عن علمه: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعِ النَّاسَ بِعِلْمِهِ»[١٩].

فمثـل هذا العالم كمثل المريـض بعلة خاصة يعلم دواءها ويصفه لمريض آخر بها، ولا يداوي نفسه منها، فغيره سينجو، وهـو سـيهلك لا محالة، هذا إن صَدَّق الآخـر قوله واتبعه، أما لو كذبه بشـاهد من عمله فقد قضى على نفسـه وعلى غيره، فهـو جانٍ جنايتين، ومرتكـب إثمين، فلا عجب أن يجيء يوم القيامـة عالم لـم يعمل بعلمه ويطرح في النار، فيسـأله أهل النار عن سـوء منقلبه وقبح مصيره، وهـو الداعي إلى الخير في الدنيا، والحاثّ على الفضيلة في الدار العاجلة، وإذا عرف أهل النار علة قدومه إليهم ووفوده عليهم، ومشاركته لهم في

(١٨) رقم ٢٩٨٩ من حديث أسامة بن زيد. (المجلة)

(١٩) المعجم الصغير للطبراني رقم ٥٠٧ من حديث أبي هريرة، ومعجم ابن المقرئ رقم ٧٧ من حديث أبي هريرة. (المجلة)

جحيمهـم ـ وهو إهمال العمل بما علم ـ حينئذ يزول عجبهم، وينقطع تساؤلهم، وينقضي استنكارهم لمآله وسوء عاقبته.

وروى حماد بن سـلمة عن علي بـن زيد عن أنس ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ عَلَى نَاسٍ تُقْرَضُ شِـفَاهُهمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَـؤُلَاءِ الْخُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَـوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ»[٢٠].

ولقـد تمثلـت القـدوة في أكرم معانيها في سـير الرسـل والأنبياء الذيـن اصطفاهم الله من خلقه وأدبهم بأدبه الكريم فسـمَوا في إنسـانيتهم، وصدقوا في إيمانهم بربهم، فعبدوه مخلصين له الدين، وجاهدوا في سبيله حتى تم أمرهم، وكانوا في ذلك أئمة المؤمنين وقدوة صالحة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

(الممتحنة:٦)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾

(الأنعام: ٩٠)

وكان محمد ﷺ هو المثل الأعلى في القدوة الصالحة، وفي ذلك يقول الله تعالى:

---

(٢٠) ورد بمعنـاه عند أحمد برقم ١٢٢١١ من حديث أنس بن مالك، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس أيضًا رقم ٨٢٢٣.(المجلة)

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١)

فما نطق عليه السلام بقول ولا أعلن مبدأ دون أن يلتزم به قبل أن يلزم به أتباعه.

لقد أقام مجتمع دار الهجرة على المبادئ، ولقن أصحابه ـ بالفعل مقترنا بالقول ـ قيم الإسلام ومبادئه المثلى، وعودهم على اتباعها حتى رسخت في وجدانهم فلقنوها الرعية، ودربهم بالمثل الصالح على السلوك الديني والاجتماعي والإداري السليم، علمهم الصبر وكان هو أول الصابرين، علمهم التواضع والتسامح والعفو وكان هو أول المتواضعين والمتسامحين والعافين عن الناس، علمهم الصدق والأمانة والمروءة والإخلاص والكرم، وضرب بنفسه المثل لهم في هذه المناقب جميعًا.

وكان محمد يحث الناس على الشجاعة والجهاد والتضحية بالحياة في سبيل إعلاء كلمة الله، فكان يسبق المسلمين في مواقف الخطر، فيواجهها غير هيَّاب ولا وجل ضاربًا أعظم الأمثلة على أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت في سبيل الله، بل يجب عليه كلما مضى في أمر يؤمن بأنه لله وللوطن أن يحمل حياته على كفه، وأن يلقي بها في وجه ما يقف في سبيله؛ فإما فاز وظفر فبلغ ما يؤمن به من حق الله

والوطن، وإما استشــهد فكان المثــل الحي لمن بعده، والذكر الباقــي لروحٍ عظيمٍ عرف أن قيمــة الحياة ما يضحي بالحياة في ســبيله، وأن الإمســاك على الحياة في مذلة إهدار للحياة، فما يستحق صاحبها بعد ذلك في الحياة ذكرًا.

وكان الرســول يؤكد بالقول والســلوك دعوة الإســلام إلى أن الدنيــا والآخرة طريــق واحد، فالعمل للآخــرة ليس معناه الانقطاع عن الدنيــا، والعمل للدنيا ليس معناه الانصراف عن العبادات فالله تعالى يقول:

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾

(القصص: ٧٧)

والرسول ﷺ يقول: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»(٢١).

وليــس أروع من هذا المثــل في تأكيد قيمة العمل، ذلك أن فســيلة النخل لا تثمر إلا بعد ســنوات، والأجدر بالمؤمن الحق أن يغرسها ولو كانت القيامة في طريقها وعن يقين.

ونهجَ النبي في مختلف المواقف مسلكًا مؤيدًا قيمة العمل وكرامتــه وأنــه نوع من العبادة، إذ كان يعمــل في الدنيا وهو يبغــي الآخــرة، ويعمــل للآخرة بالســعي في مناكــب الأرض

(٢١) رواه البخاري في الأدب المفرد بنحوه من حديث أنس بن مالك رقم ٤٧٩.

مشاركًا أصحابه في العمل مقاسمًا إياهم أعباءه.

لقد سئلت السيدة عائشة -رضي الله عنها - ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ»[٢٢].

وما أكثر ما يرويه التاريخ عن محمد القائد العظيم في تنظيم مجتمع دار الهجرة على أساس البدء بنفسه في المغارم والانتهاء بها في المغانم مما يشكل الصورة النموذجية للقدوة، لقد كان يدعو أصحابه بالمدينة إلى التعاون ويغرس في نفوسهم قيمته بالعمل الإيجابي معهم في شئون الحياة، ومن ذلك اشتراكه معهم في بناء المسجد بالمدينة إثر نزولهم بها، كما كان يعمل بيديه في بناء مسكنه بالقرب من البقعة التي اختارها مكانًا للمسجد، وقد اتخذ دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري مقامًا له أثناء البناء، وكان المسلمون من المهاجرين والأنصار يشاركونه بناء المسجد والمسكن.

وفي بعض أسفاره كان أصحابه يتهيئون لإعداد الطعام، ويتقاسمون العمل فيما بينهم، فقال عليه السلام: «وَعَلَيَّ جَمْعُ الْحَطَبِ» فقال له الصحابة: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَكْفِيكَ هَذَا» فرفض النبي أن يعفي نفسه من العمل بيديه مع أصحابه رغم

(٢٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٥٣٩-٥٤١) بنحوه. (المجلة)

كثرة مسـئولياته، ورد عليهم قائلًا: «قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفُونَنِي، وَلَكِنَّنِي أَكْرَهُ أَنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُمْ»[٢٣].

وكان النبي يشـترك مع المسـلمين في الغـزوات منذ أول معركة خاضها بعد الهجرة. ورغم ما بذله من أعباء في تنظيم المسلمين بالمدينة، فقد غزا بنفسه سبعًا وعشرين غزوة، كان فيها في مقدمة الصفوف بسـالة وإقدامًا وتسـوية بينه وبين إخوانـه المهاجريـن والأنصار في احتمال البأسـاء والضراء، وكان يكره أن يتميز عليهم، بل كان هو أشد منهم احتمالًا.

ومن أروع صور هذه المسـاواة كما تبدو في غزوة بدر أنه قد خرج في أصحابه من المدينة حين لم يكن من قتال قريش بد، وكانت أمام المسـلمين في مسـيرتهم رايتان سـوداوان، وكانت إبلهم سـبعين بعيـرًا، جعلوا يعتقبونهـا - أي: يركب الواحـد البعير مدةً ثم ينزل ليعقبـه الآخر فيركبه - كل اثنين منهم، وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيرًا.

وفي هذه المسـيرة ضرب الرسـول القائـد أكمل مثال في القـدوة الصالحـة أن سـاوى نفسـه عليه السلام بسـائر أصحابه، وجعل حظـه كحظهم، فكان هو وعليّ بـن أبي طالب ومرثد بن أبـي مرثد الغنوي يعتقبـون بعيرًا، وكان أبـو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرًا.

---

(٢٣) ذكره محبُّ الدين الطبري في خلاصة سير سيد البشر ٨٧/١. (المجلة)

إن الأمــة تؤثر قائدهــا على أفرادها؛ لأنه يقــع منهم موقع الــرأس من الجســد أو القلب من الأعضاء، فــإذا أصيب عضو وظــل القلب ســليمًا، فلا خطر يهــدد الحياة، أمــا إذا أصيب القلب، فثمة خطر عليها، ولو سلمت كل الأعضاء.

وســوف تظل حدة الخطر قائمة إذا افتقــدت الأمة قائدها ريثما يخلفه الرجل الثاني، فيســير الركب في مســيرته؛ لذلك فــإن الأمة تفتــدي رائدها، وتضحــي في ســبيله؛ لأنها تدرك ببصيرتها أنه قوام حياتها، فهي تكفل له وسائل الراحة؛ لأنها تعلم أن ما يقدمــه لها يربو على عطائها مهما بلغ، فهو الذي يضطلع بمســئولية أعضائها جميعًا، وما أشدها من مسئولية لا يســتطيع حملها أحد منهم، وهي تعلم أن ســعيها وجهدها في ســبيل تيسير مهمته إنما هو كســب يعود عليها، ومنجاة تنعــم بها في نهاية المطاف، وفــي تقديمه تقدمها ونجاحها في تحقيق أهدافها.

ومع ذلك فإن الرسول يأبى أن يخص نفسه بنصيب الفرد من جماعة المســلمين المحاربين تحــت عَلَمه، وهو يأبى ذلك مــع عِلْمه بأنه لو فعل لما تجاوز حقه؛ لأن الســلطة على قدر المسئولية؛ ولأنه يقع على عاتقه العبء الأكبر.

فهو المســئول الأول عن جنوده، ومن ثم فله أن يســتخدم من وسائل الراحة ما ييسر له مهمته الكبرى في سبيل صالح

الأمة، وهو يعلم أنه لو فعل ذلك لكان فيه مرضاة للمسلمين أنفسهم واستجابة لحبهم وحرصهم عليه.

بيد أن القائد الأعظم لا يقف عند هذه الاعتبارات برغم سلامتها، وإنما يؤثر اعتبارًا آخر هو أهم وأخطر منها جميعًا، وإن كان يجشم مزيدًا من العناء الذي قد يصل إلى حد التضحية، ذلك هو ضرب المثل الصالح للجماعة كي يحتذيه أفرادها، فيتوافر في كل منهم بعض مقومات القيادة المؤمنة الناجحة، وصفاتها العالية المتحررة من الأنانية ومن السلبية، والتطلع إلى تحمل المزيد من المسئوليات، وهذا هو السبيل القويم لإنشاء قاعدة عريضة من الأفراد الصالحين للقيادة، إذ تتشكل منهم صفوف من القادة الأكفاء الذين يستطيعون أن يواصلوا رسالة القائد الأول، فيقودوا السفينة إلى مرفأ الأمان مهما اشتدت العاصفة واضطربت الأمواج.

وهذا السلوك الذي استنه الرسول نموذج لتصرف القائد العظيم فيما يعرض له من مواقف وما يواجهه من الظروف الشاقة، فقد كان أمامه ﷺ أن ينهج طريقًا من اثنين.

أولهما أن ينفرد ببعير يمتطيه طوال الوقت، ولا تثريب عليه في ذلك، بل هو حقه لا يماري فيه أحد.

وثانيهما: أن يشترك في امتطاء بعير واحد مع بعض أصحابه شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين، ولقد اختار

الرسول الطريق الثاني وهو الطريق الصعب؛ لأن ما ينجم عنه من فوائد للإسلام والمسلمين أكثر وأكبر مما ينجم من سلوك الطريق الأول.

ولا ريب في أن مغزى هذا الاختيار هو حث المسلم على إيثار أخيه المسلم فيما يخصه الله به من نعم ومقاومة رغبات النفس في الاستمتاع وحدها بطيبات الحياة، وحثها على عمل الخير وإيثار الصالح العام على الصالح الخاص، والمشاركة في السراء والضراء، وهي كلها صفات مثالية توحد شمل الأمة، وتجعل أعضاءها جميعًا كأنما يخفق بين أضلاعهم قلب واحد أو كأنهم - كما قال رسول الله - «بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[٢٤]، وفي ذلك نزلت الآية الكريمة:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(الحشر: ٩)

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن الحق بقوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٢٥].

وكان يحث أصحابه على الإيثار مما جعلهم قومًا يقلون عند المغنم، ويكثرون عند المغرم.

والرسول الكريم يغرس هذه الفضائل في نفوس المسلمين

---

(٢٤) رواه البخاري بلفظ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» برقم ٤٨١ من حديث أبي موسى. (المجلة)

(٢٥) رواه البخاري برقم ١٣ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. (المجلة).

من طريق القدوة الحسنة، فهو يبدأ بنفسه في اطِّراح الأنانية والأثـرة، ولقـد برأه اللـه منهما، وفـي ارتضاء سـبيل البذل والتضحية، وقد هداه الله إليهما.

ومـن الواضح أن أصحابـه وتابعيه إذ يرون هذا السـلوك الحميد، ينطبع في أنفسـهم فيتأثرون بـه ويحتذونه، وبذلك يتحقق الهدف الذي اتجـه إليه القائد الأعظم، وإذا لاحظنا أن الرسـول قد ضرب هذا المثال لرجاله في مستهل مسيرته إلى معتـرك النضـال، أدركنا مدى نفاذ بصيرته القيادية إذ سـن قانونًا للعلاقة بين جنوده بعضهم وبعض، يرسـي لهم تقليدًا أساسًا من التقاليد الإسلامية قبل أن يخوضوا غمرات الحرب، ومن ثم تجيء هذه التعاليم في أوانها حتى يمكن الاسـتفادة منها عند تنفيذ الغرض الذي اتفقت عليه الأمة.

وهكذا كانت القدوة الصالحة متمثلة في المهاجر العظيم؛ أكبر الأسـس التي بنـي عليها مجتمـع المهاجرين والأنصار، وقامت أول دولة إسـلامية تهدي إلى الحق، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وصدق الله العظيم:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

الصبر والمقاومة:

من أهم الظواهر التي تستدعي التأمل في تاريخ الحضارة

البشــرية اقتــران الكفاح الــذي خاضه الأنبيــاء والمصلحون بالصبر والمقاومة في مواجهة التحديات، فالصبر هو الدعامة الثابتــة الراســخة لقــوة العقيدة، وهــو الزاد الــذي يتزود به المناضل في مسيرته إلى تحقيق أهدافه، وتتبين قيمة الصبر إذا لاحظنــا أن القلــق والتطلــع والتعجل هي بعض الســمات المميزة لأصحــاب المطالــب، وبخاصة في مرحلة الشــباب، ومــن ثم ينبغي أن نبصِّر قادة المســتقبل بقيمة الصبر حتى لا يتحــول تعجلهم إلى رعونــة واندفاع، مما يؤدي إلى أخطاء وأضــرار تعوقهم عن بلــوغ آمالهم، وأن تذكي في نفوســهم شــعلة الطموح والإقدام مــع تحذيرهم في الوقت نفســه من الجموح والعجلة.

فالمفهوم الحقيقي للصبر لا يتناقض مع الطموح والإقدام، فهــو ســبيل لإدراك الغايات المنشــودة منهمــا، على حين أن الجموح يشكل عقبة في طريقهما، وفيصل التفرقة بينهما أن الصبر قوة عاقلة حكيمة تجنب صاحبها الشطط وتعينه على النجــاة والنجاح، وهو دليل العقــل الناضج الذي يضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

أما الجموح أو الاندفاع فهــو قوة ضالة تورد أحيانًا موارد الزلل؛ لأنها تصدر عن أهواء النفس الأمارة بالسوء المسيطرة على العقل والمنطق.

ومن ثم يدرج الحكماء الصبر في عداد الفضائل، ويعدون الجمـوح نوعًا من الخفـة والنزق[٢٦]، وفقدان السـيطرة على النفـس، وهـي كلها بـاب للرذائـل، والصبر قوة نفسـية، أما الجموح فهو مظهر ضعف نفسي.

ويتبين ذلك إذا ما عرضتْ للناس شـدة من الشـدائد، فأما من يملك منهم الاتـزان والاعتصام، فهو القدير على المقاومة حتى تنجلي الغمة، وأما من يفتقد هذه الصفات، فهو العاجز عن مغالبة المحن، الضعيف في مجابهة الأحداث، يستوي في ذلـك الأفراد والجماعات والأمم والشـعوب، إذا أصابتها شـدة كاشـتباك في حرب مع العدو أو كارثة مـن الكوارث العامة، كالآفـات أو الأوبئة وغير ذلك، مـن المواطن التي تدعو للفزع والجزع.

ونخلـص من هذا إلى أن الصبـر آية على الصمود والكفاح والثقة بالنفس والتضحية في سـبيل الهدف، وهي كلها دلائل صـدق الإيمان الذي يتسـم به أصحـاب الرسـالات والأبطال والقـادة، والجموح على النقيض من ذلـك، فهو دليل اختلال في التـوازن، وجنوح إلى فقد الثقـة بالنفس وضعف القدرة على التضحية، وطريق إلى الاستسلام.

كذلك فإن الصبر دليل قاطع على سَـعة الأفق وبعد النظر

---

(٢٦) النزق: الطيش والخفة. (المجلة).

والرضا بالواقع مؤقتًا ريثما تسنح الفرصة الملائمة لتغييره، فهو سلاح يفل قوى البغي حينما يكون من الطيش تحديها ومواجهتها بالعنف، فلا يملك المرء إلا أن يلوذ بالحكمة وضبط النفس والترقب والتأهب، مع العمل في الوقت نفسه على إعداد العدة للوثوب على القوى القادرة والقضاء عليها، متى أتيحت الظروف الملائمة وآنس المرء في نفسه قدرة على صد تلك القوى ودحرها.

ومن ثم فإن الصبر من أعظم مناقب القادة والرواد، ومن أسمى غايات التهذيب وصفات البر، وهو مظهر الإسلام النفسي والإيمان الحق والجلد والمقاومة والحرص على تحقيق الأهداف النبيلة، وهو علامة صحة نفسية وتفوق معنوي ومظهر إيجابي، والمسافة بينه وبين التخاذل والاستسلام والرضا بالواقع دون العمل على تغييره كالمسافة الفاصلة بين القوة والضعف، والفرق بينه وبين الطيش والاندفاع هو الفرق بين الحق والباطل وبين الخير والشر.

والصبر في لسان الشريعة ولغة المتدينين على ثلاثة أوجه كما يقول الدكتور محمد سعاد جلال:

أحدها: الصبر على ترك الشرور والآثام.

وثانيها: الصبر على فعل الخيرات والمبرات.

وثالثها: الصبر على نزول الشدائد والتحمل لها وحسن الظن بالله تعالى في دوافعها والخلوص منها، وهذا الوجه من وجوه الصبر، وهو الصبر على نزول الشدائد، هو أقوى الوجوه دلالة على الخشوع لله تعالى والثقة به، وحُسن الاعتقاد فيه والأمل في رحمته.

فقد يصبر الإنسان المؤمن على ترك الشر فيعينه على هذا النوع من الصبر ما في الشر من قباحة وسوء عاقبة، وقد يصبر المرء على فعل الخير فيعينه على هذا النوع من الصبر ما في الخير من صباحة[٢٧] وحُسن مصير.

فأما الصبر على زلزلة النفوس بالبأساء والضراء فلا معوان للإنسان عليه، ولا طاقة له به إلا مع الاحتماء بالله تعالى والفزع إليه، والله مع الصابرين دائمًا بمعونته ونصره وتأييده، والصابرون من الناس أعلى درجة وأسمى منزلة من غيرهم، وهم يدرجون في عداد المجاهدين؛ لأن من طبيعة البشر - إلا من عصم الله- أنهم يفرحون إذا ما أوتوا نعمًا: من مال، أو ولد، أو صحة، أو جاه، فإذا ما أصيبوا بنقمة منها تألموا وانزعجوا، ويئسوا من رحمة الله، وقد ينصرفون عن إخلاصهم لله:

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (الروم: ٣٦)

(٢٧) صباحة الوجه: جماله. (المجلة).

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾

(المعارج: ١٩، ٢٠)

لهذا حث الإسلام على الصبر ووضعه في مصافّ الفضائل والمناقب التي يتصف بها المؤمن، وأفرد له منزلة خاصة بين الصفات التي يجب أن يتخلق بها المسلم، ولقد ورد الصبر في كثير من آيات الله البينات دلالة على أنه فضيلة أساسية في الإسلام، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣)

﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(النحل: ١٢٧)

﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

(يوسف: ١٨)

﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾

(العصر: ٣)

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

(الشورى: ٤٣)

﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾

(النمل: ٧٠)

﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ ﴾ (البقرة: ١٧٧)

وليس أدل من ذكر الصبر مقرونًا بالصلاة في أكثر من آية من آيات الذكر الحكيم على أنه فضيلة أساسية في الشريعة، وعلى ارتفاع هذه الفضيلة إلى مستوى القيم الروحية والأخلاقية في الإسلام مثل الحق، وهي كلها طريق النجاة والفلاح، والله تعالى يقول:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ (السجدة: ٢٤)

وتفيد هذه الآية أن الله جعل الصبر وسيلة لبلوغ الصابرين منزلة الإمامة والقيادة في الناس، وأنهم حين يبلغون هذه المنزلة يهدون الناس بهداية الله، ويدعونهم لمعرفة وجود الله والعمل بشرعه، فهم أئمة صالحون، لا دعاة سوء، ولا دعاة فجور.

فالصابرون قادة، وقادة إلى الحق وإلى الله، وبيان ذلك أن أكبر معاني الصبر المقصود ضبط النفس عن الشهوات واحتمال المصاعب في سبيل الهدف، فإذا تمكن الشخص من قمع شهواته فصار مسلطًا عليها، لا سلطة عليه، قوي عزمه، واشتدت إرادته، وصفت روحه، فاستنارت بصيرته، وصحت فراسته، ومال للعلم، فتحقق له بذلك وسيلة المعرفة، وإذا راض مزاجه على احتمال المصاعب وأراد نفسه على استساغة الحلو والمر من الخلائق والأشياء، قويت نفسه، فصارت قادرة

علــى الاقتحام، بينما لا تنال من صلابتها الهزائم، وإذا اجتمع لأي إنسان كمال المعرفة وكمال القدرة، فقد تحقق له الشرط الوحيد، ولا شرط سواه لبلوغ منصب القيادة الهادية إلى الله المنزهة من شوائب الجور والانحراف.

والرســول ﷺ هو القدوة العظمى فيمــا يتحلى به القادة مــن فضيلة الصبــر، فبالصبــر احتمل أذى قريــش وأعوانهم من أهل الشــرك والضلال، وبالصبر شــق طريقه مؤمنًا بالله صادعًا برســالته، وبالصبر قاد المســلمين إلى النصر، وفتح بهم مكة ثم أهَّلهم لنشر مبادئ الإسلام وحضارته في مشارق الأرض ومغاربها.

وكان الصبــر في مقدمة الفضائل التي غرســها الرســول في نفــوس أصحابه بالقول والفعل، وفي الحديث الشــريف، عن صهيب الرومي - رضي الله تعالى عنه- قال: قال رســول الله ﷺ:

«عَجَبًا لِأَمْــرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَــرَّاءُ شَــكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَــهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[٢٨].

وفــي الحــث على ضبط النفــس واطِّراح الغضــب والتزام

(٢٨) صحيح مسلم عن صهيب برقم: (٢٩٩٩). (المجلة)

الصبر، قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[٢٩] فالصبر قوة، والغضب ضعف لا ينبغي للمؤمن أن يتصف به.

وعن جَارِيةَ بنِ قُدامةَ أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: قل لي قولًا، وأقلل، لَعَلِّي أعيه، قال: «لَا تَغْضَبْ» فأعاد عليه مرارًا كل ذلك وهو يقول: «لَا تَغْضَبْ»[٣٠].

ومغزى الحديث الشريف أنَّ تسلُّط الغضب على النفس من أكبر شرور الأخلاق التي يصاب بها سيئو الحظ من الناس، فإن أكثر خسائر المرء في دنياه وأفدحها قلما تنال إلا بسبب طواعيته لشيطان الغضب الذي يستولي على عقله، فيمنعه عن إدراك التصرفات الملائمة في المواقف المثيرة التي تفرض على الشخص المتعقل أن يعتصم بهذا النوع من التصرفات المانعة لصاحبها عن التردي - وهو لا يكاد يشعر - في أسباب التهلكة.

إن القدرة على ضبط النفس، واستيفاء ضياء العقل عند هجوم عناصر الاستفزاز والإثارة على النفس هما كما

---

(٢٩) صحيح البخاري عن أبي هريرة برقم: (٦١١٤). (المجلة)

(٣٠) مسند أحمد(١٥٩٦٤) وله شاهد فى صحيح البخاري من حديث أبي هريرة برقم: (٦١١٦). (المجلة)

يقول الدكتور سعاد جلال في موضع آخر: «أساس تكوين الشخصية القيادية المنتصرة التي تعيش معركة الحياة، بأقل ما يقدر من الخسائر، ولذلك اقتصر النبي في وصيته للسائل على ترك الغضب، ولم يزد على ذلك في جواب سؤاله المتكرر ليتفطن الإنسان المسلم إلى أن ترك الغضب حكمة الدين والدنيا، وكما حذر الرسول من مغبة ضعف السيطرة على النفس، بشر الصابرين القادرين على كبت غرائزهم ومحاربة أهوائهم وتحمل العناء والأهوال بأن لهم أجر المجاهدين؛ لأن مغالبة نزعات النفس في السلم لا تقل شأنًا عن مجابهة الأعداء في الحرب بل إنها تكبرها، وفي ذلك يقول رسول الله: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»[٣١].

ولا يعرف التاريخ أمة صابرت البأساء والضراء لائذة بالله تعالى وثوقًا بجميل عونه، كما يعرف بهذه الخصائص أمتنا الإسلامية، وهي لم تكن كذلك؛ لأنها أكرم الخلق عنصرًا، ولا أتم الناس خلقة، ولكنها كانت كذلك؛ لأنها تربت في كفالة الإسلام وحسن رعايته وجميل توجيهه، وقد نرى صابرين على الضر تضرب الأمثال بتجلدهم واصطبارهم، غير أن دعائم الصبر عندهم تقوم على الاستهانة وعدم الاكتراث،

(٣١) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٣٧٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وضعَّف إسناده.(المجلة)

وهــؤلاء لا تعتــز بهم أمم، ولا تنتفع بهم شــعوب، وربما رأينا صابريــن علــى الضر لا تقــوم دعائم صبرهــم إلَّا على الحقد والتربص، وهؤلاء يمثلون دائمًا مســعر فتنة ونذير بلاءٍ، وبهم دائمًا تتراجع الخطا الخيرة إلى التقويم والصلاح؛ فأما الصبر الذي تقوم دعائمه على اللجوء إلى الله تعالى والاســتعانة به، والالتفات إلى جزيل رحمته، وجميل معونته، بعيدًا عن الحقد الهــادم والتربص الآثــم، فهو الصبر الذي أمــر الله تعالى به ودعا المؤمنين إليه، وقــرن الصلاة به، ثم هو بعد هذا الصبر الذي يزامل الشــكر في حياة المؤمن حتى ينتهي به إلى خير الدنيا والآخرة.

ولقــد اســتقرت فضيلة الصبر فــي الأمة الإســلامية إبان العصر الأول للإسلام، عصر الفتوحات والانتصارات التاريخية، فلما نكب الإسلام بالشــعوبيين وأعداء الإسلام، زينوا التخاذل والتواكل للناس وألبسوه ثوب الصبر، والصبر منه براء، فكانت النَّكسَــات والهزائم إلى أن قيض الله للإســلام قادة مصلحين من أبنائه، بينوا للناس المفاهيم الحقيقية للشريعة الإسلامية، وأوضحوا لهم أن الصبر عُدة للانتصار وسلاح لتحقيق الآمال.

ومــا أحرانــا أن نبث قيمــة الصبــر الحقيقية فــي نفوس الطلائع من شــبابنا في تلــك المرحلة الحاســمة من تاريخنا التــي تتطلب ضبط النفس وقهر الشــهوات والارتفاع بالصبر

إلى مستوى القيم الإسلامية، ولقد تمت الهجرة بنجاح بفضل ما آتاه الله رسوله وصحبه من فضيلة الصبر بمضمونه الإيجابي الذي يعني المقاومة والنضال والكفاح والتضحية، فكان اصطبارهم هذا عُدَّة للانتصار وسلاحًا لتحقيق الآمال.

التعاون والإخاء بين القيادة والقاعدة:

يقاس نجاح القيادة بمدى قدرتها على كسب رضا القاعدة الجماهيرية عنها وولائها لها، ولا يتأتى لها ذلك إلا ببذل المزيد من الجهود لإنجاز الرسالة التي ائتمنها عليها الشعب، وهي تحقيق الصالح العام، ويُجْمع الباحثون في جوهر القيادة ومقوماتها وعوامل نجاحها على أن التقاء القادة بالشعب هو أقوم الطرق المؤدية إلى تعاون مختلف الفئات في سبيل صلاح المجتمع وتقدمه؛ ذلك لأن القائد لن يستطيع بمفرده ـ مهما أوتي من موهبة ومقدرة ـ أن يقيم صلاح المجتمع على أسس راسخة وطيدة، وأن يتغلب على جميع المشكلات التي تعترض طريقهُ، إنه لا يستطيع وحده أن يبني وطنه، أو ينشر عقيدته، أو يحول مجتمعه، وإنما يستطيع بالجماهير وحدها أن يغيِّر واقعها وأن يشكل مستقبلها، وأن يحيل الأهداف والأماني إلى واقع حي، كذلك فإن الجماهير ليس في وسعها أن تحقق أهدافها في إقامة العدل والمساواة والرخاء ما لم يكن لها دليل يحدوها إلى هذه الغاية.

فكل جماعة من الناس في حاجة إلى قائد ينظمها ويوجهها ويرشـدها، كمـا أن القائد في حاجة إلـى معاونة كل فرد في الأمة، ولقد أدرك الناس بالبداهة منذ فجر تاريخ الحضارة أنه لا يمكن أن يرتفع بناء إلا على أساس ثابت متين، وقديمًا قال الشاعر العربي:

البيـت لا يبنـى إلا لـه عمـد

ولا عمـاد إذا لـم تـرسَ أوتـاد

وأسـاس بنـاء المجتمع هـو تعـاون أفـراده جميعًا على اختلاف مسـتوياتهم، وشـعور كل منهم بحاجتـه إلى الآخر، وإيمانهم بأن الواحد للكل والكل للواحد.

فالرئيـس أو القائـد يمثـل الرأس بالنسـبة إلى الجسـد، وموقعه من الأمـة موقع القوة المفكرة والطاقـة الدافعة، أما بقيـة أفراد الأمـة فهم بمثابة أعضاء هذا الجسـد، فلا غنى له عنها ولا غنى لها عنه.

ومـن ذلك يتبين أن المجتمع الصالـح هو الذي يتآلف فيه كل أعضائـه ابتـداء مـن الصـف الأول حتى الصـف الأخير، ويتحدون في نظام منسق، ويعملون في تعاون تام، فلا تنافر ولا تضارب بينهم، وإنما وحدة قوية متماسكة؛ على أن مهمة توفيـر هذه الوحدة وذلك التناسـق إنما تقع على عاتق رئيس الأمة؛ لأنه على قدر السلطة تكون المسئولية؛ ولأنه بحكم ثقة

الأفراد فيه وتفاعله معهم وقدرته على التأثير فيهم، وما يملك من مواهب وخبرات وسلطة، يستطيع رسم الطريق الصحيح الذي يسلكه المجتمع، وتهيئة أفراده وتدريبهم على السير في هذا الطريق وممارسة العمل الجماعي المثمر.

وتثبت الدراسات المقارنة لتاريخ المجتمعات والحضارات الإنسانية أن المجتمع الإسلامي في دار المهجر كان مجتمعًا مثاليًّا في تماسكه وتعاونه ووحدته بفضل القيادة الرشيدة الواعية، وقد كان النظام الإسلامي أفضل الأنظمة السياسية والاجتماعية التي حققت أهدافها في جميع الميادين بما أتيح له من قادة مستنيرين استطاعوا أن يلتقوا بالقاعدة الشعبية ويرفعوها إلى أعلى المستويات كفاية وأمنًا وعدلًا.

ولقد تمثلت في سيرة الرسول ﷺ أعظم صفات القائد ومناقبه، وتوافرت في خلفائه وسائر صحابته المؤهلات اللازمة للقيادة الحكيمة، فقيض الله على أيديهم رفعة الإسلام وازدهار حضارته في مشارق الأرض ومغاربها، وأنجبت الأمة الإسلامية في عهودهم الزاهرة أفضل القادة على مدار التاريخ في مختلف مناحي الحياة من دين وسياسة واجتماع واقتصاد ودبلوماسية وحرب وغير ذلك من الميادين، هؤلاء القادة الذين أثروا وجدان العالم أحقابًا طوالًا بآيات من العقيدة والفلسفة والآداب والعلوم والفنون، وما زالت مبادئهم وتعاليمهم قادرة

على هداية الناس إلى ما فيه صلاح الإنسانية ورقيُّها.

والتعــاون الإيجابي بين القمة والقاعــدة نتيجة لالتقائهما وتبــادل الثقــة بينهما- هو أول أســباب النجــاح الذي أحرزه هؤلاء القادة كل في ميدانه، ولقد بُني هذا التعاون على أساس إيمان الأمة بقائدها وولائها لــه، ولم يكن هذا الإيمان ليتحقق حتــى يصبح ركيزة أساســية للتعــاون، لولا ما أوتيــه القائد فــي المجتمع الإســلامي من خصائص عديــدة تتصل بالفكر والســلوك وتميزه عن غيره، وفي مقدمتهــا الإيمان بالتعاون ســبيلًا لإنجاز الرسالة، وتعاون القيادة مع القاعدة في سبيل تنفيذ الهدف المشترك فرع من أصل عام في الإسلام هو مبدأ التعاون بيــن الناس جميعًــا لتحقيق مصلحتهــم، يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وإذا كان الناس إخوة في الإنســانية بحكم نشــأتهم الأولى من نفس واحدة، فإن المؤمنين إخوة في العقيدة والإنســانية معًا:

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ ﴾

(الحجرات: ١٠)

ومن ثم فإن التعاون بينهم توثيق لأسمى الروابط وأقدسها، والله تعالى يخاطبهم بقوله:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ (المائدة: ٢)

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ (آل عمران: ١٠٣)

فالمؤمن الحق جندي في كتيبة الله، يلتحم بالروح مع شركائه في الجهاد وفي الحرب، فهو ينكر ذاته ويضحي بجهوده بل بدمه، في سبيل المبدأ الذي اعتنقته الأمة والهدف الذي التقت عليه، وأولى خطوات هذا الإيثار هو التعاون، ومظهره المشاركة في العمل وتقاسم الأعباء، والتضامن في السراء والضراء، والمبادرة إلى النجدة حين البأس، وعدم التكالب على المغانم، فمن سمات الأمة المؤمنة أنها تكثر عند المغرم وتقل عن المغنم كما قال رسول الله؛ ولقد عبر الرسول عن تعاون المؤمنين في أبدع صورة حين قال:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[٣٢].

(٣٢) صحيح البخاري عن النعمان بن بشير برقم: ٦٠١١. المجلة

وفي صورة رائعة أخرى عن هذا التعاون يقول رسول الله: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[٣٣].

ويتجلى التعاون والإخاء في مواقف كثيرة تنبئ عنها الأحاديث النبوية، ومن ذلك أن رجلًا سأل الرسول عليه السلام: أي الإسلام خير؟ فقال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِف»[٣٤].

ومن صور التعاون قوله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ نَفَّسَ[٣٥] عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»[٣٦].

فليس ثمة حافز للمسلم على التعاون مع أخيه المسلم ومحضِه المحبة خالصة أجلُّ من رضا الله عنه ومعاونته له في الدنيا والآخرة، والتعاون هو آية الإيمان الكامل، وفي ذلك

---

(٣٣) صحيح البخاري، عن أبي موسى برقم: ٤٨١، وتقدم قريبًا. (المجلة)

(٣٤) صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو برقم: ١٢.

(٣٥) أي: فرَّج.

(٣٦) صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر برقم: ٢٤٤٢.

يقول الرسول: «لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ الْمَرْءِ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٣٧].

وفي أول خطبة ألقاها في المدينة قال: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرة فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ»[٣٨].

وفي خطبته الثانية قال: «اعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَاصْدُقُوا اللهَ صَالِحَ مَا تَقُولُونَ، وَتَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ[٣٩] بَيْنَكُمْ، إِنَّ اللهَ يَغْضَبُ أَنْ يُنْكَثَ بِعَهْدِهِ»[٤٠].

إن الإسلام هو دين المحبة والتراحم والسلام، والتعاون بين الناس في قضاء حاجاتهم، هو السبيل إلى شيوع هذه القيمة وتعميقها في نفوسهم وتقوية شعورهم بالترابط الإنساني الذي يجمع بين أفراد الأمة برباط التعاطف والتكافل والإيثار.

---

(٣٧) رواه البخاري عن أنس برقم ١٣ بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى....»

(٣٨) أخرجه هناد في «الزهد»: (٤٥٢)، وأخرجه البخاري (٦٠٢٣)، ومسلم (١٠١٦) بنحوه من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه دون ذكر «فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها». (المجلة).

(٣٩) أي: القرآن والسنة؛ لأن بهما حياة القلوب. راجع «المفاتيح» للمظهري:٥/٢٣٢، «ومرقاة المفاتيح» ٨/٣١٣٨.

(٤٠) دلائل النبوة للبيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف برقم ٧٨٠. (المجلة).

ولقد شرع الله العبادات لتهذيب النفوس والارتقاء بها في مدارج الإنسانية، حتى يصبح الناس جميعًا متآخين متحابين متعاونين، يشـعر كل منهم بشـعور الآخريـن من بني قرابته وأفراد جماعته وإنسانيته، فيعين المستعين به منهم، ويقضي حاجة المحتاجين.

فإذا ما استقرت قيمة التعاون في النفوس، تحقق التكافل الاجتماعـي وهو حجر الزاويـة في بناء المجتمع الإسـلامي، وسر تماسـكه وقوته وغلبته على أعدائه وانتشار عقيدته بما تحمله من مثل عليا لهداية البشر إلى طريق الخير والحق.

ذلك هو مضمون الوحدة والتعاون في الإسـلام، وتلك هي معانيـه التي طالمـا نادى بهـا النبي في مكة، وغرسـها في نفـوس أتباعه، وإذا كان مجتمع المسـلمين فـي مكة قد قام علـى الوحدة والإخاء والصبـر على المكاره، فـإن مجتمعهم فـي المدينة في حاجة إلى مثل هـذه الوحدة لمواجهة الأعداء والنصر عليهم.

وإذا كانـت قريش وحلفاؤها تسـتهدف غايـة واحدة هي وحدة الإسلام، وتقف في صف واحد لتحقيق هذا الهدف، فإن وحدة المسلمين هي الأقوى؛ لأنها تقوم على القيم والمبادئ لا المصالـح المادية؛ ولأنها نابعة من إيمان قوي، أما قريش فلا

يجمعهـا إلا الرغبة في الإبقاء علـى نظامها القائم على الظلم والاسـتعباد، على حين تنخر في عظامهـا المتناقضات؛ ومن ثم، فإن إرادة المسـلمين هي الأقوى؛ لأنَّ وراءها عقيدة تعتبر الاستشهاد فوزًا، فلا تهرب من الموت، بل تقبل عليه مستهينة بالروح دفاعًا عن النفس والوطن والعقيدة.

وتحفل بهذه المعاني سـيرة الرسـول والمسلمين في دار الهجـرة؛ فقد التحمت القيادة والقاعـدة التحامًا عضويًّا، كما نعبر بلغـة العصر مما يرجع إلى تعاونه عليه السلام مع المهاجرين والأنصار ومشـاركته شئونهم، وإسـهامه في حمل أعبائهم؛ إذ كان يتحمل مسـئوليات القيادة، ويشـارك في الوقت نفسه القاعـدة في مهامها مهمـا كلفه ذلك، وكان يبـذل جهده في أوقات السلام كما يبذله في الغزوات.

وحسبنا أن نتمثل هذا التعاون المثالي في مشاركته رجاله في حفر الخندق يدًا بيد، حين أحاطت بالمدينة جيوش قريش وحلفائها من أعداء الإسلام.

فكان يرفع التراب، ويسـتخدم مع المسـلمين آلات الحفر من مسـاحٍ «مجارف» وكرازين «فئـوس». وكان من أثر هذه المشـاركة أن اندفع المسـلمون في العمل بأقصى طاقاتهم، وقد شـجعهم فعل رسـول الله أعظم التشجيع، وضاعف من

جهودهـم، وبهذا الدأب والجهـد المتصل تم حفر الخندق في سـتة أيام، وكان حصنًا حصينًا للمدينة، وقاها شـر العصبة الباغية التي كانت تتربص بمحمد وأصحابه الدوائر.

ولقـد كان الرسـول بتصرفاته وأعماله المثـل الأعلى فيما دعـا إليه مـن إخاء بين الحاكم والمحكوم فـي المجتمع الذي أقامـه بالمدينة، إخاء يحقق غاية البـر والرحمة دون ضعف أو اسـتكانة، وقد بلغ إخاؤه عليه السلام أسـمى صور الكمال؛ فكان يأبى أن يظهر في أي مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة، وكان يقول لأصحابه:

«لَا تُطْرُونِـي كَمَـا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَـمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»(٤١).

وخرج علـى جماعة من أصحابه متوكئًا على عصا، فقاموا لـه، فقـال: «لَا تَقُومُـوا كَمَا تَقُـومُ الْأَعَاجِـمُ، يُعَظِّـمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»(٤٢).

وكان إذا بلغ في مسـيرٍ أصحابـه جلس منهم حيث انتهى به المجلس، وكان يمازحهـم ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم ويجلسـهم فـي حجره، ويجيب دعـوة الحر والعبد

(٤١) صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب برقم ٣٤٤٥. (المجلة)

(٤٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل عن أبي أمامة برقم ٢٢١٨١. (المجلة).

والأمــة والمســكين، ويعــود المرضــى فــي أقصــى المدينة، ويقبــل عذر المعتذر، ويبدأ من لقيه بالســلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحــة، ولا يجلــس إليه أحد وهو يصلــي إلا خفف من صلاته، وســأل عــن حاجته، فإذا فرغ عــاد إلى صلاته، وكان يخدم نفسه، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضعيــف والبائس والمســكين، وكان إذا رأى أحدًا في حاجة آثره على نفسه وأهله، وقد وصفه الله وأهلَ بيته بقوله تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (٤٣)

(الحشر: ٩)

وقد اتسعت جوانب هذا الإخاء في الله، فشمل الذين اتصلوا بــه جميعًا، فبادله المهاجرون والأنصار حبًّا بحب، وســارعوا فــي كل موقف إلى إثبات ولائهــم وإخلاصهم له، وتضحيتهم بالنفــس في ســبيل نجاته. ومــن أروع المواقــف الدالة على عظيم محبة المســلمين لنبيهم أن المســلمين حين نزلوا بدرًا واســتعدوا للمعركة وبنوا حوضًا على الماء، أشــار ســعد بن معاذ قائلًا:

«يا نبي الله، نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك،

---

(٤٣) الــذى في أغلــب المصادر أن الآيــة نزلت في قوم من الأنصــار على اختلاف في تعيينهم، وعبارة المؤلف منقولة من كتاب «حياة محمد» بتصرف إذ ليس فيه أن الآية فى آل البيت؛ فتأمل.(المجلة)

ثـم نلقى عدونا، فإن أعزنا اللَّـهُ وأظهرنا على عدونا كان ذلك ممـا أحببنا، وإن كانت الأخرى جلسـت علـى ركائبك فلحقت بمـن وراءنا من قومنـا، فقد تخلف عنك أقوام يـا نبي الله ما نحن بأشـد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك»[٤٤].

فكان الهدف من بناء المسـلمين العريـش للنبي أنه إذا لم يكـن النصر في جانبه وجانب أصحابه، لم يقع في يد عدوه، واستطاع اللَّحاق بأصحابه في يثرب.

إن المسـلمين كانوا يعلمون أن قريشًـا تفوقهم في العدد، وأنهـا ثلاثة أمثالهم، ومـع ذلك اعتزموا الوقـوف في وجهها وقتالها، ولقد فاتتهم الغنيمة بانقلاب أبي سفيان ونجاة عيره؛ ولكنهـم قاموا إلى جانب النبي يؤيدونه ويعززونه دون حافز من كسـب مادي، وإنما هو حب رسـول الله الـذي تمكن في قلوبهم لقاء إخائه ورعايته لهم ممتزجًا بإيمانهم برسالته.

وحيـن دارت الدائرة على المسـلمين في غـزوة أُحد، بعد مخالفـة الرمـاة أمر النبـي، وأخذ خالـد بن الوليـد مكانهم، وتفرقـت الصفـوف، فـازدادت الفوضى، وتفاقمـت المحنة، واختلف المسلمون، وكان أكبر هَمِّ المحارب المسلم أن ينجو

(٤٤) سيرة ابن هشام ٦٢٠/١، ٦٢١.

بنفســه إلا من عصم الله من أمثــال عليّ بن أبي طالب؛ صاح صائح بالناس: إن محمدًا قد قُتل، وما لبثت قريش حين علمت بقتــل محمد أن تدافعت تدافع الســيل مــن الناحية التي كان فيهــا النبــي، وكل يريد أن يكون له في قتلــه أو التمثيل به ما يفخر به، هنالك أحاط المســلمون القريبــون بنبيهم الحبيب يدفعون عنه ويحمونه.

وقد عاد الإيمان فملأ نفوســهم وملك قلوبهم، وحبب إليهم الموت، وهون عليهم الحياة الدنيا، فِداءً للرســول الذي هداهم إلــى دين الحــق، وقادهم إلــى طريــق العزة، وأســر قلوبهم بإخائه، وزادهم إيمانًا واستماتة أن رأوا الحجارة التي تقذفها قريش قد أصابت النبي، فأصيبت رَبَاعيَته، وشُــجَّ في وجهه، وكُلِمت[٤٥] شــفته، ودخلت حلقتان من المِغْفَرِ[٤٦] الذي يستر به وجهه فــي وجنته[٤٧]، ولكن الله أراد نجاة النبي وأصحابه فعادوا إلى المدينة.

ومن أجل مواقف اســتماتة المؤمنين في الدفاع عن رسول اللــه في تلــك المحنة، موقف أم عمــارة الأنصارية، وكانت قد

---

(٤٥) أي: جُرحت.

(٤٦) المغفر: خوذة تغطى الرأس والوجه.

(٤٧) أي: خَدَّه، أو أعلى خَدِّه.

خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين، تسقي منهم من استسقى، فلما انهزم المسلمون، ألقت سقاءها واستلت سيفًا، وقامت تباشر القتال، تذبُّ عن محمد بالسيف، وترمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليها.

وموقف أبي دُجانة إذ جعل من نفسه تُرسًا دون رسول الله، فحنى ظهره والنبل يقع فيه.

وموقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب النبي يرمي بالنبل دونه، والنبي يناوله النبل ويقول له: «ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»[٤٨].

بل لقد بلغ حب المؤمنين رسولهم وإيمانهم برسالته حدًّا يفوق الطبيعة البشرية فيما تقدر عليه من الفداء والتضحية، فإن الذين ظنوا أن النبي قد مات -ومن بينهم أبو بكر وعمر- كانوا قد انتحوا الجبل وألقوا بأيديهم، فرآهم أنس بن النضر فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم؛ فقاتل قتالًا شديدًا، وأبلى بلاء منقطع النظير، حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته، عرفته من بنانه[٤٩].

---

(٤٨) رواه البخاري عن علي بن أبي طالب رقم ٢٩٠٥. (المجلة)

(٤٩) سيرة ابن هشام: ٨٣/٢. المجلة

تلــك صــور ومواقــف من التعــاون والإخــاء بيــن القيادة والقاعدة، بين القائد الأعظم للبشــرية وبين جماعة المؤمنين مــن المهاجرين والأنصار في دار الهجــرة، إخاء في العقيدة، وفــي العقــل بين القائد وبيــن كل فرد في القاعــدة، وتعاون قوامــه: الفــرد للأمة، والأمــة للفرد؛ فلا عجــب أن تكون روح الإخاء والتكافل هي حجر الأســاس في بنــاء مجتمع المدينة، وإنشــاء أول دولة إســلامية، وغرس البــذور الأولى للحضارة الإســلامية التي أنجبت للإنســانية أعظم قادتهــا ومصلحيها وعلمائها وحكمائها.

الفهرس

الفصل الرابع

التخطيط والتنظيم في دار الهجرة ٣
خطة من واقع الظروف الجديدة ٤
حتمية أسلوب المجابهة ٦
وسيلة تحقيق الهدف..الإيمان والوحدة ٩
تنظيم المسلمين ١١
عقبات قد تحول دون تحقيق التعبئة ١٢
الاحتياجات الأساسية ١٧
باكورة تدابير الوحدة ٢٢
إنجاز الخطة ٢٥
قيمة العمل في دار الهجرة ٣١

الفصل الخامس

القيادة الإدارية في دار الهجرة ٤٣
تمهيد.. الإدارة والقيادة الإدارية ٤٤
تعريف القيادة الإدارية ٤٧
نظريات القيادة ٤٩
فيصل التفرقة بين القائد والرئيس ٥١
مقومات القيادة وتفسيرها ٥٢
الانتماء إلى الأمة ٦٠
قوة الإيمان أو الحافز الصادق ٨٤
القدوة في الالتزام بالدعوة ١٠٣
الصبر والمقاومة ١١٩
التعاون والإخاء بين القيادة والقاعدة ١٢٩